شقـة عايـدة

شقة عايدة

عمر جودة ناجي

للنشر والتوزيع
Arabic Library

اسم الكتاب: شقة عايدة
اسم الكاتب: عمر جودة ناجي
تدقيق لغوي: مصطفى حسين
تصميم الغلاف: حسن العربي
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى – ٢٠٢٠ م
رقم الإيداع: 2020 / 11160
الترقيم الدولي: 978 – 977 – 85718 – 4 – 4

arabiclibrary2017@gmail.com
almaktaba79@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017
01030365801 - 01014977934

جميع الحقوق محفوظة
للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

الإهداء

إلى عايدة التي تسكنّي

والتي ليست مجرد شخص عابر في حياتي أو حياة البعض منكم..

إلى عايدة وقصتها ما بين بشر عامر والشيخ الوالي..

إلى عايدة وسيد أوبرا وملحمة الدفاع عنها..

إلى عايدة صنيعة فكري..

عزيزى القارىء..

ها نحنُ نلتقي بعملٍ آخر بعد العمل الأول "إبن جنيّة" ولكنه عملٌ مختلفٌ عنه فى كل شيء.. لقد أردتُ أن أُقدّم لكم جميعًا بُرهانًا على تطور قلمي وأفكاري؛ فكتبتُ لكم تلك الرواية التي يُميّزها عن غيرها أن كل مافيها حقيقيٌ جدًا؛ شُخوصها، أماكنها وحتى التواريخ المذكورة فيها.. وضعتُ فقط لمساتي الفنية وأضفتُ جُزءًا من خيالي في الكتابة، عازمًا على أن آخُذكُم في رحلةٍ بين الماضي والحاضر، والخيال والحقيقة لتظل تلك الرواية في عقولكم، بكل ما فيها من أحداث..

فإن كان من تقصير فمنّي وإن كان من فضل فمن الله.

أرجو أن ينال هذا العمل رضاكم ولا أبتغى من ورائه شيء سوى إمتاعكم فإن شعرتم ببعض المتعة وببعض الحنين لها بعد ان تصلوا للنهاية فهذا ما أُريده..

وأخيرًا

شُكرًا للمكتبة العربية للنشر والتوزيع وصاحبها أستاذ جمال على كل ما بذلوه في سبيل تقديم هذا العمل.. شُكرًا..

د. مي دفع الله	أ.إكرام الإكرام	د. أماني يسري
أ.نهى درويش	د.منى حارس	د.شيرين محمود المصري
أ.رانيا رجب	د.فاطمة رضوان	أ.سوسن نصر الدين
أ.مروة ممدوح	أ.دينا جمال بدر	أ.حنان يوسف
أ.مصطفى كامل	أ.سيد محمد واحى	أ.رفاعي محمود
أ.وحيد محمد	أ.محمد اسماعيل	أ. وليد ممدوح
أ.علاء مطاوع	واليوتيوبر أ.أسامة يسري	

وآخرون لم تُسعفني الذاكرة لذكرهم..

شُكرًا لكل قاريء على صفحة قصص عمر جودة ناجي..

هذا العمل نتاج دعمكم..

خالص محبتي وودي

عمر جودة ناجي (عبدالموجود السيد)

(١)

عمـر

الآن الساعة تتعدى الثانية بعد منتصف الليل، وأنا أسير في ذلك الطريق المظلم، جسدي يرتجف بشدة، وأشعر بالبرد يتخلل خلايا جلدي، والهواء البارد يحيط بي من كل جانب.. فجأة، ظهر صوت ذلك الكلب الأسود الضخم، لم يكن بغريب علي، لطالما رأيته في كل أحلامي.. الشارع نفسه الذي أسير فيه، التوقيت نفسه لانقطاع الكهرباء.. ما أن أنزوي إليه وها هو نباح الكلب لا يتوقف.. أشعر بصوته قريبا من أذني، يزداد ارتجافي، لكني لم أجرؤ ولا حتى في تلك الأحلام أن ألتفت إليه، فقط أكتفي بالنظر إلى الخيال الذي رسمه جسدي على الحائط الجانبي وعلى خياله أيضا.. لم يكن أبدا كلبا طبيعيا، كان كبير الحجم وصوته مخيف مرعب.. خلفي يسير خطوة بخطوة.. إني أحاول حتى الوقوف فيقف، أسرعت الخطى فاسرع هو خلفي.. إلى أن أصل باب بيتي، وأقف على عتبته لأراه يقف في نهاية الشارع ينظر إلي بكل حذر.. كأنه يضمر كرها دفينا لي.. ولا يقترب ولا يتحرك خطوة.. أشعل هاتفي كي أتبين طريقي إلى السلم المؤدي لشقتي.. أتعثر وتلتف أقدامي، أكاد أسقط، لكن يدي تنقذني بعدما أمسك بكل عزمي بدرابزين السلم.. بحذر أتحرك لأقف أمام شقتي.. أشعر بسائل لزج يلتصق بحذائي، أقرب الضوء إليه لأشهق بشدة، إن السائل الذي أمام

شقتي ما هو إلا دماء.. بركة من الدماء، أقف في منتصفها عند نهاية الممر المظلم، هناك شيء يلمع كأنه عيون تراقبني.. أشير بضوء الهاتف صوبها لأجدها قطة الجيران، بل مجموعة من القطط، تلتف حول شيء دائري لا أستطيع معرفة كنهه سوى بالاقتراب أكثر، أقترب ومازال حذائي يتحرك وسط الدماء، لتفزع القطط المحيطة بالشيء، ثم تحاول الهرب صعودا.. لكي أرى هذا الشيء!! غير معقول!! إنها رأس. رأس بشرية كاملة.. أحاول التماسك، وأنا راغب في القيء، لأقترب بعدما تمايلت بجسدي صوب الرأس.. "مستحيل!! إنه محمود.. لقد كان يهاتفني في الصباح!" وفجأة سقطت أنا لأفقد الوعي..

لست أدري كم بقيت مكوما في مكاني.. كل ما عرفته فيما بعد أن الجيران شعروا بسقوطي، وبصوت ارتطام جسدي بالأرض، ولكن لم يجرؤ أحد أن يفتح باب شقته كي يستطيع نجدتي خوفا من الظلام الدامس، أو ظنا منهم بوجود لصوص بالعقار.. أصبح الناس جبناء لذا كان عليهم الانتظار. وعندما عاد التيار الكهربائي وجدوا جسدي مكوما على باب شقتي، ولا أثر لدماء أو رأس محمود صديقي!!

يخيل إليهم جميعا أنني ملبوس.. أو أن الجن قد تمكن مني، لذا لم يعد غريبا من جيراني وأصدقائي نعتي بالممسوس.. فربما لا أتذكر متى أطلق علي هذا اللقب.. أتذكر قديما عندما كنت طفلا في الثامنة من عمره وشعرت أنني في حاجة للتبول، كان الوقت متأخرا جدا.. وعلي أن أنادي

أمي ولكني لم أفعل.. لذا تسللت خارجا من غرفتي كي أذهب إلى الحمام، وأشعلت مفتاح الإنارة برفق ودلفت إلى الداخل، تبولت ثم وقفت أحاول أن أشب لأرى نفسي في المرآة المعلقة أعلى حوض غسيل الأيدي.. لم أستطع رؤيتي، لذا أتتني فكرة أن أسحب الكرسي الخاص بمكتبي، وأضعه هناك بالحمام للوقوف عليه.. بالفعل فعلت ذلك، ثبت الكرسي على أرضية الحمام.. لأعتليه ثم أقف عليه، ووجدت رأسي أصبح أعلى من المرآة.. لا أرى فيها سوى صدري.. حاولت أن أثني جسدي، وأنا أقترب أكثر من المرآة.. حتى رأيتني.. اقتربت أكثر، لألتصق بها، وأنا أنظر بداخلي.. عيني! شيء ما في عيني أخافني بشدة.. كان ثمة شيء له قرون سكنها.. تراجعت بسرعة ووجدت رأسي يبتعد عنها.. ولكن بينما كان رأسي يتلاشى، كان هناك رأس آخر تملأ المرآة، عيون بيضاء لا سواد فيها، وقرون مثنية.. حتى إنها قريبة من الفم، الذي كان ذو شفاه غليظة تسكنه أسنان مدببة.. كانت تقطر دماء غزيرة.. نظرت إلى أرضية الحمام.. ووجدت الدماء تتجه إلى البالوعة، وشعرت أن الكائن أدرك وجودي.. الأضواء في المنزل كله تتراقص.. شعرت بهواء ساخن خلف أذني.. ورأيته في المرآة ينقض علي.. بينما الضوء المتراقص انطفأ.. مما جعلني أنتفض ليتراقص الكرسي بي وتصطدم رأسي بجزء من الحوض وأنا أصرخ بشدة. انتفضت أمي من مخدعها لتأتي إلي مسرعة، ومعها أبي الذي كان قد تأهب للنوم، حاولت

إفاقتي، ووجدت رأسي قد شج ودمائي تسيل صوب البالوعة، فحملتني بين يديها، بينما رفع أبي الكرسي، وأغلق المصباح المنير بالحمام..

بعد فترة أفقت لأجدني مدثرا بثياب غير التي كنت أرتديها.. بينما هناك شيء موصول بيدي، إلى حامل به محلول يتدفق عبر الخرطوم.. وأمي تقبل رأسي وتبكي، وأبي يقف مكتوف اليدين على مقربة من مؤخرة السرير.. أغمضت عيني للحظة وتذكرت ذاك الوجه الشيطاني وهو يحاول الانقضاض.. فبدأت الصراخ والبكاء، واحتضنتني أمي بقوة وهى تحاول تهدئتي، كي لا أجرح يدي بسبب تحرك الخرطوم الموصول بها.. بينما أنا لا أستطيع الهدوء، وأنا أرى باب غرفتي مفتوح والطرقة التي أمامه مظلمة.. وهناك على الحائط ارتسمت صورة ذلك الكائن.. بدأت أشير بيدي إلى أبي: "إنه خلفك، يقف هناك في الظلام!". انتبه أبي إلى الحائط المظلم، وشعرت أنه يراه مثلي.. أسرع الخطى ملتفا للخارج ليضع يده على مفتاح الإنارة بالطرقة التي تلاشى معها وجه الكائن..

لعدة أيام متتالية؛ بدأت أخاف التواجد وحدي في أي مكان، حتى أمي أصبحت لا تغادر غرفتي إلى غرفتها مع أبي.. كان الطعام يأتيني إلى السرير.. ولا أتركها تمضي وتتركني إلا أن يكون أبي جالسا في مكانها نفسه.. بت أخاف من أن أكون وحيدا معزولا.. وأصبحت أهاب الظلام.. حتى إنني شعرت بإظلام نفسي داخليا.. وعندما استمر الحال على ذلك، وجدت أبي ذات يوم يتصل بأمي ليخبرها أن معه ضيفا قد أتى به من قريتنا

البعيدة.. وأن عليها تحميمي وانتظاره في الصالون.. بالفعل حملتني أمي للحمام.. الذي تشبثت ببابه كي لا أدخله مرة أخرى.. طوال الأيام السابقة كانت أمي تحضر إلى الغرفة "قصرية الأطفال"، وعندما تشبثت بالباب بكل عزمي، همست لي ألا أخاف، وأنها ستحضر المياه الساخنة إلى غرفتي.. كنت متشبثا بالباب وأنا أراه ينتظرني بالداخل، يقف أمام الحوض ووجه لي، يمد يده المليئة بحوافر وأظافر حادة.. يمررها على الحائط الجانبي وأسمع خربشتها به..

حضر أبي في الموعد الذي حدده لأمي.. ودخل إلى المنزل وإلى جواره شيخ يرتدي عمامة حمراء.. وجلبابا أسود يسمى قفطان.. كان وجهه بشوشا مريحا، جعلني أشعر بالأمان قليلا، جلس إلى جواري ليسألني عن أحوالي: "عامل إيه يا أستاذ عمر؟" قالها وهو يضع يده اليمنى على رأسي، ويمرر أصابعه بين خصلات شعري، لأنظر إلى فمه وهو يتمتم بتمائم غريبة، أو هكذا ظننت وقتها، قبل أن يخبرني أنه معالج لا يستخدم سوى آيات الله وكتابه، فيما بعد، شعرت بخدر في كامل جسدي وهو يمرر أصابعه، وكلما رفعت رأسي إليه وجدته يبتسم.. بدأت صورته تتضاءل وتشحب ثم اختفت، لأجدنني أجلس في موضعي نفسه، لكن كل من معي اختفي تماما، ولم يبق سوى الشيخ.. وهناك على مقربة من باب الشقة وقف كلب كبير عظيم الجسد عينه حمراء كالدم يشد جسده للخلف استعدادا للوثب علينا.. بينما الشيخ يقرأ أوائل سورة الصافات..

(٢)

عمـــر

ما أن انطلق الشيخ؛ الذي عرفت أن اسمه - فيما بعد - مالك، بآيات من سورة الصافات، حتى انتبهت بعيني إلى باب شقتنا، الذي كان يهتز اهتزازا بسيطا غير ظاهر، سرعان ما ازداد، مع انتقال الشيخ إلى أواخر سورة البقرة، ويبدو أنه هو الآخر كان يشعر بما أشعر به نفسه، فنظر إلى أبي نظرة كانت بمثابة أمر بإغلاق الباب، دون أن يتوقف عن القراءة لإخباره ذلك، وبينما اتجه أبي إلى الباب، نظر الشيخ إلي مبتسما؛ وكأنه يقول لي إنه رأي ما رأيت.. علا صوته بالآيات الأخيرة من البقرة، ومعه ارتفع صوت أزيز أو طنين، يعلو درجة بدرجة حتى أصبح موازيا لصوته.. وشعرت بالشقة كلها، والأثاث، والشيخ، وأمي - الجالسة أمامنا - وأبي الذي بات بالقرب من الباب.. يدورون رأسا على عقب.. ازداد الطنين بشكل مؤذ، وشعرت أني أرغب في وضع يدى على أذني، بينما انفتح الباب فجأة على آخره، مما جعل أبي يسقط على الأرض، والشيخ أخرص عن التلاوة، وهب واقفا، بينما أمي لم تمنع صرخة مدوية، وهناك - أمام الباب - كان الكلب نفسه يقف ويسده على آخره، ويلهث بمخاط يتساقط منه على الأرض، وكان يستعد للوثب باتجاه أبي.. وعندما وقف الشيخ؛ نظر إليه بعينين شرستين، كأنه يتوعده بالقتل، واقترب من أبي - الساقط بالقرب من الباب

- وزمجر بصوت مخيف مرعب اهتزت له أركان شقتنا، ولم أتحمل أنا كل هذا، فغبت عن الوعي.

عندما فتحت عيني، دارت في كل الغرفة.. غرفتي بالتأكيد، دولابي، وسريري، ومكتب مذاكرتي، وأمي تنتحب ببكاء غزير، وتضع يدها على صدري، وإلى جوارها يجلس الشيخ مالك، ومازال يقرأ الآيات، ألفتت لأرى أبي، فلم أجده.. فهمت أمي سؤالي - الذي كان قد سكن عيني - لتقول لي:

"بابا كويس بس هو تعبان شويه"

تنحنح الشيخ مالك ليقول لي:

"أريد منك أن تواظب على الصلاة والأذكار، ولا تنمْ سوى وأنت على وضوء"

هززت رأسي بالإيجاب، وللعجب رحت في نوم عميق وشديد جدا..

في ساعات الصباح الأولى، استيقظت على صوت أذان الفجر، ووجدت أمي تتمدد إلى جواري، وقد وضعت يدي على يدها، لتشعر بحركتي، وتستيقظ، طلبت منها أن توضئنا، وأن نصلي سويا الفجر، وما أن أنهيت وضوئي، حتى خرجت مسرعا من الغرفة، لأفترش سجادة الصلاة، وهممت أن أبدأ صلاتي، لكن تذكرت أني لم أر أبي منذ أن رأيت الكلب يقترب منه.. التفت إلى باب غرفته، ودفعت الباب؛ لأجد أبي مكوما على السرير، يرتعد، كل أطرافه ترتعش، ووجه أحمر كالدم.. كان يبكي، أعرف

أبي عندما يبكي، شعرت أنه يريد أن يقول شيئا، أو أن يخبرني بشيء ما، أمسكت كوب الماء الذي كان جواره على المنضدة، ورفعته إلى فمه.. كانت عيناه شاردتين، ويده - التي يحاول أن يسند بها الكوب - تهتز، بينما كانت أمي قد أنهت وضوءها، ومتفاجئة بي داخل الغرفة إلى جواره.. لم يبتلع كثيرا من الماء، وأخذتني عنوة من جواره، فوقفت للصلاة.. كان دعائي كله أن يشفي الله أبي، وعندما انتهينا، سمعنا سويا، صوت ارتطام زجاج بالأرض.. أسرعنا إلى الغرفة لنجد كوب الماء متكسر بالقرب من سرير أبي، وعيناه جاحظتان، وفمه مفتوح قليلا، وتخرج منه إفرازات بيضاء.. صرخت أمي، وتدافعت ضربات قوية على باب شقتنا، فأسرعت بفتح الباب، كان بعض من الجيران قد حضروا إلى المنزل، وفي أمور سريعة، حضرت سيارة الإسعاف، وتجمع بعض الأهالي أسفل منزلنا، لكن السيارة عادت خالية كما أتت، لقد أخبرنا الطبيب المرافق لها أن والدي قد توفي.. مات.. ولم أكن أعي - وقتها - معنى أن يموت أحد، أن يغيب للأبد.. أن يكون كل ما كان بينك وبينه مجرد ذكريات عابرة.. لقد علمت وقتها معنى أن تكون يتيما بلا أب، بلا سند.. أن تلتزم الطاعة.. ألا تتشاجر مع الصبية، خشية أن يأتي كل واحد بأبيه.. إلا أنت.. تعلمت أن الموت خاطف، سارق، لا يأخذ في حساباته شيء من شعورك، أو رغبتك في البقاء.. وإنه ابتلاء.. حتى لو كان في غريب لا تعرفه.. بكيت كما لم يبك طفل.. وظللت في وحدتي وبكائي وانعزالي، الذي زاد بغياب أبي.

لم أجرؤ يوما على سؤال أمي عن سبب وفاته.. كنت أخشى أن تخبرني ما بات في ظني- وقتها - "أنت السبب". هل نقتل الأحباء دون وعي أو رغبة منا؟!.. أنا السبب!!.. حتى لو كان قد مرض، لقد ظل لآخر يوم في حياته يحمل همي.. والآن بات ميتا غائبا، وإلى الأبد..

لم تخبرني أمي.. ولم نتطرق يوما إلى كل ما حدث، لا أدرى لماذا، لا أعرف سوى أنني أصبحت ملتزما ومتفوقا جدا في كل شيء، والفضل كل الفضل يعود إلى صديقي عامر، إنه في سنى نفسه، وكان يحزنني أنه في مدرسة بعيدة عنى، أخبرني أنه كان يمر بالصدفة من أمام منزل خالي الذي عاد من سفره عقب معرفته خبر وفاة أبي.. كان خالي متزوجا ولديه طفلة أصغر مني بكثير اسمها "عايدة" وكان لديه منزل كبير، به كثير من الغرف الفارغة، ورثه عن جدى لأمي.. كنت أشعر بالغربة بداخله، لم يكن لي يوما وطن كشقة أبي.. أشعر هناك بأنفاسه تلاحقني، وأنه في أية لحظة سيفتح باب غرفته، وهو يدارى خلف ظهره، هدية ميلادي أو جائزة نجاحي.. أشعر به كأنه سينادينى، وهو في غرفته كي نتفق على مشاكسة أمي..

بيت خالي كبير وواسع لكنه يفتقد للحياة، لدى المنزل حديقة كبيرة يحيط بها سور عال وبوابة ضخمة.. كنت دائما ما أجلس في الحديقة، وأنا أحاول أن أستذكر دروسي وواجباتي، بينما تلهو عايدة جواري ببعض قطع البازل، في يوم ما فجأة اعتراني شعور ما بوجود شخص ما يراقبني، أو يتلصص علينا من خلف أشجار الحديقة، تركت عايدة تلهو كما هي،

وحاولت ألا ألفت انتباهها وأنا أتسحب للمرور بين الأشجار، للبحث عن الشخص المجهول.. أخذتني أقدامي إلى البوابة الضخمة، وأخذني الاستطلاع لفتحها، وأنظر نظرة عابرة إلى الشارع.. كان هادئا جدا، كسائر منطقة المعادي كلها.. خطر ببالي أن أنطلق سيرا من الشارع الرئيسي إلى مكان شقتنا القديمة، كنت أعرف أنها في الجوار قريبة وليست بعيدة.. بالفعل سرت إلى آخر الشارع، واحترت في الانزواء إلى جهة اليمين أو اليسار، وبعد تفكير لفترة بسيطة، اتخذت طريق اليسار.. لأجدني قد شعرت بالتيه والضياع.. والأدهى من ذلك، أنه عندما هممت بالرجوع، كان هناك كلب أسود.. يقف على مسافة بعيدة مني.. هنا ظهر عامر صديقي – والذي لم أكنْ أعرفه قبل تلك الحادثة – ممسكا بحجر ضخم، يرفعه صوب الكلب، الذي كان ينقل نظراته بيني وبينه، حتى أسرع بالاختفاء.. كان علي أن أشكره، وأن أطلب منه مساعدتي في العودة إلى منزل خالي، الذي ما أن وصلت إلى شارعه حتى رأيت أمي، وخالي، وزوجته، وهى تحمل عايدة يتلفتون في كل مكان.. لابد أنهم افتقدوني.. وتركني عامر لأواجه مصيرا محتوما بسبب قلقهم عليْ.

بعد أيام اعتدت حضور عامر، إلى الحديقة في وقت مذاكرتي.. كان دوما لا يرغب في دخول المنزل، وينتظر خروجي إلى الحديقة.. أخبرني أنه يسكن في الشارع القديم نفسه، الذي كنت أسكنه.. لكنه لم يعرفني قبل ذلك اليوم الذي أنقذني فيه من ذلك الكلب الضخم.. حاولت أن أساله

عن الشيخ مالك، وهل يعرف مكان بيته؟ أخبرني أنه سيبحث عنه وسيخبرني بمكانه.. دون أن يسألني عن السبب.. كان كل مقصدي أن هناك فرصة لأعرف ما حدث لأبي وقت غيابي عن الوعي.. أن أسأله عن الشيء الذي ظهر ورأيناه.. بالطبع لا أجرؤ أن أسأل أمي عن أي شيء من هذا..

(٣)

عمر

نظرات القلق والخوف في عيون جميعهم، من أمي، وخالي، وزوجته.. كانت كبيرة بالنسبة لطفل ضل طريقة، واستطاع العودة إلى المنزل.. احتضنتني أمي وكأنها خشيت على نفسها من فقدي، مثلما حدث لأبي.. لكنها عندما سألتني: "أين كنت؟ ولماذا غادرت المنزل، وتركت الصغيرة عايدة وحدها؟" لم أشأ أن أكذب عليها، أخبرتها أنني كنت أريد رؤية منزلنا القديم، شارعنا الذي ولدت فيه، الشقة بها شيء يناديني للعودة إلى هناك.. كنت أكثر صراحة عندما أخبرتها بصداقتي بعامر.. مما أثار مخاوفها أكثر.. وفي الأيام التي تلت تلك الحادثة، باتت أكثر حرصا على ألا أغيب عنها طوال فترة بقائي في المنزل، حتى عندما كنت أجلس في الحديقة كنت أشعر بها تراقبني من خلف النوافذ، أمي باتت تخشى علي بصورة أشبه بالمرض.. غير أني لمحت ظل عامر أكثر من مرة بالقرب من البوابة الحديدية، لكنني لم أجرؤ أبدا على ترك مكاني والذهاب إليه.. لكنه لم يمل المجيء.. أرى ظله في أوقاتي بالحديقة نفسها، وكأنه يأتي فقط ليخبرني أنه حريص على صداقتي وودي، مهما حدث.. أيام قليلة أخرى مرت، وكانت العودة إلى الدراسة. وكان على أمي اصطحابي إلى المدرسة، والمجيء في موعد عودتي.. وكانت عايدة هي الأخرى قد أصبحت في الصف الأول

الابتدائي.. وشعرت بمسئولية الأخ تجاهها، كنت أشعر أنني مفتاح معرفتها الوحيد للأشياء.. أنا أول من أطعمها البسكويت المحشو بالشكولاتة.. وأنا كنت من أخبرها أن العالم أكبر من منزلهم، ومن مدينتنا، بل ومن كل البلاد التي نعرفها.. كنت أشعر أنها باتت جزءا من تفاصيل يومي.. ما أن تتركنا أمي عند باب المدرسة، حتى تتشبث بيدي باحثة عن أمان زائف يسكن نظراتي الحانية لها..

لم أر عامر ولا ظله لمدة أسبوعين، كنت أعلم أنه من المؤكد في مدرسة أخرى، وأن شئون الدراسة شغلته.. لكن ما حدث ذات يوم، وفي أثناء فترة الفسحة المدرسية تركت عايدة تلهو مع رفيقاتها من الزهرات الصغيرات، وذهبت إلى الحمام، لأشتبه في شخص يقف في الظل، بالقرب من سور المدرسة، وإلى جوار حائط الحمامات كان الظل الذي أعرفه لعامر.. ناداني هامسا: "عمر!".. تلفت يمينا ويسارا باحثا لأتأكد أن لا أحد يلحظ وجوده سواي.. وانطلقت صوبه، احتضنته كصديق غائب عني منذ مدة، وجلسنا على الرصيف المقابل للحمامات، فبادرني قائلا: "لقد عرفت منزل الشيخ مالك، هل أنت مستعد للذهاب إليه؟"، كانت الإجابة معروفة؛ مستحيل!!.. ليس لدي وقت يخصني.. وقت أستطيع فيه فعل ما أريد.. أمي تحاصرني بخوفها، وعايدة تتعلق برقبتي في كل مكان.. لكن عامر كان أكثر جاهزية مني، قال: "سوف نذهب الآن.. وسوف تعود إلى المدرسة قبل انتهاء اليوم الدراسي".

بحيرة سألته: كيف سأفعل ذلك؟

فقال: "سوف أعلمك القفز من على سور المدرسة و..."

القفز من فوق سور المدرسة مغامرة، أعرف أنه لا يلجأ إليها سوى الطلاب الفاشلين، أما أنا..!! لكن الشيخ مالك سيخبرني الحقيقة، سيفعل، وسيخبرني بما حدث لأبي.. تساءلت إن كنت أنا على استعداد لمعرفة الحقيقة أصلا؟! الأمر فيه مجازفة.. لكن الهدف المنشود أسمى.. قطع تفكيري صوت رنين جرس انتهاء الفسحة، أمسك عامر يدي وقال: "الآن وإلا لن نستطيع مرة أخرى".. وجدت الطلاب يتجمعون في طابور للصعود إلى الفصول، ورأيت عايدة، قد انفضت صديقاتها عنها، ووقفت حائرة في منتصف الحوش، نزعت يدي من عامر، ووجدتني متلهفا لقطع حيرتها، أخذتها من يدها ووضعتها في طابور فصلها، بينما وقفت أنا في طابوري وعيني متعلقة بالفتى المتواري خلف الحمامات.. هم عامر بأن يقفز من فوق السور، لكنه تفاجأ بي أمد يدي إليه ليرفعني إلى جواره مبتسما وراضيا تماما.. لحظات وأصبحنا في الشارع الرئيسي..

"من حسن حظك أن الشيخ مالك منزله بالقرب من هنا"

قالها عامر وبدأنا ندلف شارعا بعد شارع، وكأننا نسير في متاهة بازل عملاقة من بيوت ومساكن.. وكلما مللت السير أجد عامر ينظر إلي مبتسما ليقول: "اقتربنا؛ لم يتبق سوى قليل". توقف عامر عند رأس أحد الشوارع، وأمام بناية تبدو كسفارة كبيرة، أشار بيده إلى منزل بالقرب منها:

"هناك عند اليافطة الصفراء شقته، أعلى اليافطة". يبدو أن عامر لن يأتي معي، وسيتركني أخوض الأمر وحدي، أمسكت يده محاولا سحبه معي، لكنه تعلل بأنه يخشى الشيوخ، ويفزع من سيرة الجن والعفاريت.. عامر الذي أخبرني قبل ذلك أن الصلاة والحفاظ عليها يمنعان عن المؤمن كل شر.. حتى الجن يخشاه المؤمن! لم يكن لدي وقت للوم عليه، تركته وأنا ألتفت إليه.. شعر بحيرتي، فقال "سوف أنتظرك هنا حتى تعود اطمئن". كانت نظرته هو الآخر حانية، أشعر دائما بالاطمئنان معه.. دلفت إلى البناية وصعدت الدرج.. لأدق الجرس.. لكن لا أحد يستجيب!!.. هممت أن أذهب خائب الرجاء.. لكنني سمعت صوت صرير الباب، وقد تحرك ليكشف عن جزء من صالون، أضواؤه خافتة وفي منتصفها يفترش الأرض رجل ممدد ونحيف جدا.. بدأت أقترب خطوة بخطوة.. وبأرجل مرتعشة وبصوت مبحوح: "شيخ مالك هل أنت موجود؟!" سعل الشخص المكوم على الأرض، ودفع الغطاء الذي يتدثر به، لأشهق متراجعا للخلف، مستحيل إنه الشيخ مالك!! ماذا حدث له؟! لقد أصبح أشبه بالهيكل العظمي!! لقد نحل جسده وكش وجهه، حتى شعره الأسود أصبح أصلعا، لم يمض سوى شهور على آخر مرة كان في زيارتنا، كيف أصبح هكذا؟؟ "تعال يا عمر" قالها بصوت متقطع، واختفت الابتسامة الطيبة من وجهه، "تعال يا عمر ليس لدينا وقت كثير". اقتربت على مضض،

قال: "أعلم ما الذى أتى بك إلى هنا، كنت أنتظرك من يومها.. قاومت بكل ما أوتيت من عزم، كي أبقى إلى موعد هذا اللقاء"..

"أنا كنت أريد أن أعرف.. أنا.."

قاطعني قائلا: "أعلم.. وصدقني لست السبب فيما حدث لأبيك.. أبوك السبب فيما حدث، وسيحدث لك ويحدث لي، لقد أحيا أبوك شرا مستترا في تلك البناية الملعونة.. وهذا الشر قد سكن الشقة، وهو لن يتوانى في إيذاء كل من سيسكنها أو تصل ملكيتها إليه، لقد كان الشيء نائما خامدا، وأبوك عن جهل جعله ينشط، وأعطاه من القوة الكافية ليهزم كل من يحاول الوقوف أمامه..".

"لكنني أنا الذي رأيته في مرأة الحمام، وأنا الذي رأيته معك.. ألا تذكر الكلب الضخم في باب الشقة؟" قلتها، وكنت لا أعلم أن عينيه تعلقتا بشيء في سقف الصالون، كان يتابعه من أعلى باب الشقة، إلى المنتصف الذي يتكوم فيه.. رفعت عيني إلى أعلى لأراه يتعلق بالسقف، كان عبارة عن وجه أسود مقيت، عيناه واسعتان تستطيران بالنيران، ويداه وأقدامه بهما حوافر عملاقة.. كان يجز على أسنانه ويركز نظره على الشيخ المكوم -الذي سكنت عينيه كل علامات الفزع والخوف والترقب- صرخ في بكل ما لديه: "انصرف الآن يا عمر..! لا تعد إلى هنا أبدا.. واحذر أن تسكن تلك الشقة.. فلتهرب الآن!" قالها، بينما اتخذ ذاك الكائن طريقا مسرعا إلى الطرقة الفاصلة بين المطبخ والحمام.. لكي أتفاجأ بكرات من لهب

تأتي مسرعة من الطرقة.. لم أجد بدا من الفرار.. لكنها كانت أسرع.. عندما وصلت إلى الباب، كانت هي في أعقاب أقدامي.. بينما التفت لأجد جسد الشيخ مالك يحترق، وصرخاته تملأ الدنيا.. بينما تشكلت النيران خلفي بوجه ذلك الكائن، وهو يبتسم عن رضا، بينما يفتح فمه على آخره، لأسقط أنا على عتبة الباب في حينها، تردد صوت في أذني.. من بعيد.. صوت صافرة عربة الإسعاف!!..

(٤)

عايدة (١)

عمر ليس أخي أو حبيبي، لكنه سيظل الشخص الذي أجد عايدة التي أحبها معه.. فأنا وعمر عبارة عن خطين متوازيين، لا يتقاطعان أبدا، ليس هناك فرصة أساسا لأن يتقاطعا.. أرى فيه نفسي الضائعة نتيجة اغترابي عن مصر لسنوات، ويرى في كل شيء يخبره أن هناك من يهتم لأمره.. عمر يعاني من الاغتراب الداخلي، لقد سكن الحزن قلبه يوما وأقسم ألا يفارقه.. وأنا جربت مرارة الاغتراب والفقد، لذا ترانا نتعكز على بعضنا بعضا، كي تصبح حياتنا أسهل.. مازالت ذكرى وداعه تسكنني.. أتصورها، وأراها أمامي كأنها مجسمة حد التصديق.. لكن قد سبق تلك الذكرى ذكرى أخرى سيئة، كدت أن أجعل عقلي ينساها لكنه أبى!! ذلك لأنها تخص عمر.. أذكر ذلك اليوم تماما كنت صغيرة في السن - وقتها - وكان عمر هو كل شيء بالنسبة لي، عمر أكبر مني ويعي أمورا لا أستطيع أن أعيها.. كنت أتشبث به كطفلة تخشى فقد أمها، كنت أشعر بالسعادة والأمان وأنا أسير بالقرب منه داخل حوش المدرسة، لم يكن ليتركني عمر كي أصعد إلى فصلي وحدي، لكن في ذاك اليوم بدا مشغولا عني، بشكل أو بآخر كان يحدثني وعيناه معلقة برصيف ملون بالأبيض والأسود، أمام حمام الصبية، كان يركز على شيء لا أراه ولا أعرف لماذا يشغله!! هكذا، وكانت قد أخبرتني أمي قبل

ذلك أن عمر ممسوس من الجن.. وأن أكون على حذر إذا ما لاحظت عليه شيئا غريبا.. أخبرتني أمي أن الجن قد سكن جسده، وأنه يوما ما سيحول عمر إلى مجرم، وسيبدأ بقتل الأقربين منه.. على الرغم من ذلك لم أخش عمر يوما، كانت في عينيه أشياء تطمئني، تجعلني أكثر راحة وأنا بالقرب منه.. لم أحمل حديث أمي على محمل الاهتمام.. لكن في ذاك اليوم.. كان عمر آخر يقف أمامي.. ويمسك بيدي، ساحبا إياي، كأنه يريد الخلاص مني.. سكن الخوف مقلتي وشعر هو بذلك.. لكن أنقذنا سويا جرس انتهاء الفسحة.. تركني مسرعا إلى ركن بجوار الرصيف الذي كان يرقبه، وبقيت عيناي معلقتان به حتى وأنا أصعد سلالم المدرسة، فجأة توقفتا أمام أحد الفتحات المطلة من البناية على مكان وجوده، ووجدته يحاول مرات عديدة تسلق سور المدرسة..

ناديته بصوت مضطرب وبخوف شديد عليه، وبخوف آخر أن ألفت الانتباه إليه، فيعاقب بسببي.. لكنه كان قد انتهى من صعود السور والاختفاء في الجهة المقابلة.. ظللت طوال فترة الدراسة المسائية مشغولة البال عليه، حتى إنني لم أع أي درس مما قيل أمامي، وتعرضت للعقاب والوقوف بمحاذاة باب الفصل رافعة يدي حتى نهاية الحصة.. ربما ألم ذراعي هو ما جعل الذكرى حاضرة بقوة أمامي.. يقولون في علم النفس أن الإنسان لا ينسى أبدا الكف الأول.. والقبلة الأولى أيضا.. وأنا بالطبع لم أتعرض لعقاب طوال حياتي سوى تلك المرة، فهنا في لندن لا مجال لمثل تلك

الأفعال مع الصغار وأنا كنت صغيرة.. عندما انتهى اليوم الدراسي، انتظرت حضور عمر إلى الفصل كي يساعدني في حمل حقيبتي، لكنه لم يأت وقد خلى الفصل إلا مني.. بعد فترة حضرت عمتي هدى أم عمر، وكان وجهها ملونا بالأحمر.. خوف شديد كان يسكنها، تلقفتني حاضنة إياي لتقول لي: "الحمد لله أنه لم يأخذك معه.. أنت بخير؟"، كانت ترددها وهي تتفحص كل جسدي، وتضع يدها على بعض مناطقه، وكنت لا أعي ما حدث لعمر، وسكن عقلي وقتها أنه ربما في الأسفل.. لكن الحوش فارغ، لا صبية فيه، والعربة تقف خاوية بدون عمر على باب المدرسة.. كدت أسال عمتي، لكن الحالة التي كانت عليها ألجمت فمي.. وعدنا إلى المنزل واستقبلتني أمي، لتأخذني من السيارة.. بينما كنت متلهفة لرؤية عمر، كنت أريد أن أسأله أين ذهب!! وأن أطلب منه إعطائي قطعة شكولاتة، حتى لا أخبر أمه بما رأيت.. أسرعت وأنا أقذف حقيبتي إلى صدر أمي ممنية نفسي بوجوده في الحديقة.. وما أن ابتعدت خطوات حتى سمعت عمتي تقول: "سأذهب الآن لأرى عمر، لقد حدثني خاله أنه معه، وأن الحروق ليست خطيرة جدا"، "حروق!!.. عمر!!.. أبي!!" ماذا حدث بالضبط في بضع ساعات قليلة؟! لحقت بي أمي وأنا أسير إلى جوارها باتجاه غرفتي.. وبدأت استبدال ملابسي ووجدتني لا أتحدث أو أشاكس.. فقط أميل برأسي للأمام.. رفعت رأسي من أسفل خدي بأطراف أصابعها، وجدتني أسألها: "أين عمر؟"

"لقد تعرض لحريق قاتل كاد يفتك به"

"كيف؟"

" لا تشغلي بالك.. والآن تتبعيني إلى مائدة الغداء".

ظللت مشغولة طوال اليوم، أنظر إلى البوابة الحديدية، وأنتظر دخول أبي منها بصحبة عمر وعمتي، لكن الليل كان قد أتى ولم يأت أحد.. نادتني أمي تطلبني للنوم.. وبالفعل غفوت في غرفتي إلى أن سمعت صوت أقدام في الصالون.. قمت على أطراف أصابعي وسرت بمحاذاة باب غرفتي، حاولت أن أفتحه دون أن يصدر صوت الصرير اللعين للأبواب القديمة.. ونجحت في فعل ذلك لأجد أبي يتناول الطعام، وأمي تجلس بالقرب منه، كان أبي يتحدث: "أنا لا أدري لماذا تلاحق المصائب هذا الفتى الصغير؟"

"هو المتهور دوما.. لو أنه التزم بالمكوث في المدرسة لما حدث له كل ذلك"

"أنت محقة.. لكنه يقول أن هناك فتى ساعده في ذلك"

تحدثت لنفسي وقتها: "فتى!! أي فتى؟! أنا لم أر سوى عمر وهو يتسلق السور، كان المشهد واضحا تماما من أعلى.. لم يكن هناك أي فتى في صحبته.."

همهمت أمي وكأنها تريد أن تتحدث في أمر آخر، أو لديها طلب تخشى الحديث عنه خوفا من غضب أبي، دوما تفعل ذلك ودوما يفهم أبي ما تريد..

- " أظن الفرصة مناسبة لتحدث أختك في الأمر!"

- "أي أمر؟"
- "أمر ديون زوجها.. لقد سحب منك في تلك الفترة القصيرة قبل وفاته أكثر مما يساوي نصيبها في هذا المنزل"..
- "لكن الظرف أبدا غير..."

قاطعته: "أعتقد أنه الظرف المناسب.. وأنت لن تأخذ شيئا ليس من حقك، فقط ستخبرها أنها وطفلها الممسوس هذا، ضيوف عندك وليسوا شركاء هنا.."

- " أظن أن ذلك سيحزنها أكثر"
- "أخشى أن تكون أنت وأسرتك سبب أحزاني كلها"
- "في الحقيقة كنت أفكر أن أترك لها المنزل الكبير كله.. لأن لدي فرصة حقيقية للسفر إلى لندن، وربما لن نعود من هناك أبدا و..."
- "وحقك؟ وأموالك التي دفعتها لزوجها؟"

وضع أبي يده على مقدمة رأسه وكأنه يحاول الخلاص من المأزق الذي وضع نفسه فيه ليقول لها: "لدي حل ممتاز.. سأطلب منها أن تكتب الشقة التي كانت تسكنها باسم عايدة ابنتنا، وأظن سعرها يساوي أو يزيد عما اقترضه زوجها.. ويبقى هذا المنزل شراكة بيننا.. وبين أبنائنا وربما من يعلم!! يكون بيت زوجين في المستقبل"

شهقت أمي "أتريدني أن أعطي ابنتي عايدة لذلك الطفل الأبله المسوس عمر؟!!"

ابتسمت وأنا أقف خلف الباب.. لم يكنْ في عقلي وقتها معنى لأن يجمعنا منزل أنا وعمر كزوج وزوجة.. لكن أن يكون عمر إلى جواري طوال العمر.. كطفلة شعرت أن العالم بين يدي، إذا تحقق لي ذلك، ولم أكن أعرف أن غربتي ستبعدني، ولن يجمعني بعمر طوال عمري سوى أيام معدودة في موعد زيارتي الثانوية لمصر.. والتي كان يتهرب منها دوما.. ولا يلتقي بي سوى في اللحظات الأخيرة قبل سفري..

(٥)

عايدة (٢)

أتذكر أيضا زياراتي العديدة إلى عمر بصحبة أبي في المستشفى، كان يشعر بالخجل عندما يراني أمامه أتفحص أجزاء من جسمه قد غطت بالضمادات، كنت أعلم أنها جروح صعبة، وربما ستترك أثرا فيما بعد، كان هو يخشى التقاء عيوننا، كنت أشعر به يريد الهرب كي لا أراه في مثل تلك الحالة؛ لذا كنت أبدي انشغالا عنه بالحديث مع أبي وعمتي حول مدرستي، وحفظي للأرقام، والحروف كلها.. كنت ألمحه بطرف عيني، فأجده يغمض عينيه، أو يوجه وجهه صوب النافذة. إلى أن أتى اليوم الذي طلب فيه أبي من عمتي أن تصحبه للخارج، لأنه يريدها في أمر هام، كان سيخبرها أنه أنهى إجراءات سفره وسفرنا معه، وددت لحظتها لو أن عمتي تتمسك بوجودي في رعايتها، وإلى جوار عمر، لكنها كانت أوهاما في عقل طفلة، كل ما تحصلت عليه يومها أنني جلست إلى جوار عمر وحدنا، ومددت كف يدي إلى كف يده، ولم يستطع أن يحول نظراته عني، همهم ليقول لي:

- " أنا آسف"
- "على ماذا؟"
- "على أني تركتك يومها، لقد حدث الأمر بسرعة، وكنت أريد اللحاق بعامر"

- "عامر؟" من يكون عامر؟! لم أر أحدا في صحبته.. كان وحده تماما!!"
- "نعم، صديقي الذي كان ينتظرني قرب السور.. عند رصيف الحمامات"

هززت رأسي.. ربما كان هناك أحد ولم أره!!

اقتربت بفمي من أذنه لأقول له: "هل أراد العفريت قتلك"

وضع يده الأخرى على وجهه..

- "من أخبرك بهذا"
- "أمي"
- "لا توجد عفاريت أو جن.. إنهم يقولون ذلك، لأنها أشياء تخوفنا، ترهبنا كأطفال، لقد انفجر أنبوب البوتاجاز في شقة الرجل الذي كنت أزوره"
- "ولماذا ذهبت إليه أصلا"
- "كان صديقا لأبي.. وأرجوك كفاك أسئلة وإلا سأخبر أمي أنى أريد أن أعود إلى شقتنا ونترككم"

ابتسمت لأقول له في بلاهة: "لم تعد شقتكم.. أصبحت شقتي (شقة عايدة) ولن تتركونا، نحن من سنترككم!"

قلت هذا كله من باب مكايدة الأطفال لبعضهم بعضا، وخلال تلك الفترة التي كنا فيها سويا معا، كان أبي يخبر عمتي بموعد سفرنا بعد أسبوع، وإنه كان قد أتم معها أمر انتقال الشقة إلى ملكيتي في صباح اليوم نفسه.. بدا عمر غاضبا جدا مما أخبرته إياه.. أصبحت نظراته نارية، وتخلت البراءة عن محل سكنها في مقلتيه، وبدا أنه ينظر لأبي وكأنه اغتصب حقه وسرقه عنوة.. لم يكن يدري شيئا - عن كل ما وصلني- عن أن أباه قد اقترض مبلغا أكبر بكثير من قيمة الشقة التي أخذها أبي كتعويض يرضيه.. هو كان يرى الأمر دوما على صورة مغايرة للواقع.. لا أدري أأخبرته عمتي بالحقيقة بعد ذلك.. أم أنه ظل مصدقا ما أوصله إليه عقله.. كل ما أتذكره أنا الآن؛ أن عمر عاد إلى المنزل بعد يومين، كان يخشى أن يلتقى بي.. كنت أذهب إلى المدرسة على الرغم من أن سفرنا تحدد بعد أربعة أيام، وكان يبقى هو في المنزل وفي صحبته عمتي، وكانت أمي هي الأخرى تخرج لشراء متعلقات تخص سفرنا، وكنت عندما أعود يغلق عمر باب غرفته، وعندما تناديه أمه للطعام يخبرها من خلف بابه أنه ليس بجائع.. يتحسس باب غرفته كلما شعر بهدوء أو أنني غير موجودة في الصالون.. وفي مساء ليلة سفرنا ناداه أبي، ونحن مجتمعون جميعا أمام التلفاز، وعندما لم يرد، قام والدي ليفتح باب غرفته ويجده يتصنع النوم.. تغير عمر كثيرا منذ اللحظة التي أخبرته فيها أني أصبحت صاحبة الشقة.. وأصبح عدوانيا حتى في الرد على أبي.. عندما نزع عنه الغطاء وجده يبكي والدموع تملأ وجنتيه.. رفعه أبي إلى

صدره واحتضنه هامسا: "أعلم أنك رجل.. وستكون مكاني إلى جوار أمك، لا تحمل هم شيء، وستكون لنا زيارة سنوية كل عام"، ثم احتضنه، بينما عمر يضم يديه إلى جوار جسده، رفعه أبي وخرج به إلى الصالون.. كنت أجلس بين أمي وعمتي.. وعندما رأيت أبي يلقي به بمزاح على مقعد واسع، ذهبت بتلقائية لأجلس بالقرب منه، كنت أريد أن أعتذر له، أن أستسمحه، أن أخبره كم هو كبير في نظري، أن أشرح له أمر امتلاكي شقتهم.. لكن كل شيء بداخلي حبس حتى اليوم، لم تأت أبدا لحظة المصارحة والمكاشفة بيننا.. كان ينظر إلي، وعيناه تقولان كل شيء.. لحظات الوداع أصعب ما خلق الله في الكون.. تنسحب روحك من المكان كله مودعة كل شيء عيناك قد توعدته.. كل ركن من حائط أو صورة معلقة أو شخص تبادلت معه النكات والضحكات ينسحب من حياتك، لا، في الحقيقة أنت من تنسحب وتترك كل هذا خلفك.. كان أهم أشيائي في الطفولة هو عمر ..وقد تركته دون أن آخذ منه شيئا، سوى ذكراه التي كانت تهفو على قلبي ووجداني من وقت إلى آخر.. ذهبنا إلى النوم مبكرا.. بينما ارتدى أبي ملابسه متعللا بأن هناك أمرا يريد أن يفعله قبل سفره، والعجب وقتها أنه طلب من عمر ارتداء ملابسه كي يصحبه معه.. أين ذهبوا؟ ومتى عادوا؟ لم أعلم عن الأمر أي شيء، لكنني عندما أغمضت عيني رأيتهما سويا في كابوسي تلك الليلة؛ كأنا يركضان في شارع مظلم لا ضوء فيه، كانت ثياب أبي ممزقة، كأن شيئا هاجمه، كان خصره مجروحا بجرح

غائر عميق.. بينما عمر كان قدْ سقط على الأرض ممزق الثياب، ووجهه معفر بالتراب، يمد يده مستنجدا بأبي، كي يجاهد وينقذه من شيء لا أراه.. وكنت أنا في نهاية الشارع أجري ثم أجري وأجري من شيء لا أعلمه. وسمعت عمر يصرخ في أبي: "قلت لك ألا تستدعها!! لن يتركها، سيفعل بها ما يفعله بنا!"

كان أبي يجاهد وهو يقول: "اهربي يا عايدة.. اهربي"، لم أفهم ممَّ أهرب؟!! ولماذا أجري بكل تلك الحماسة.. حتى وجدتني أقف دون أن أسمع صوت أي واحد منهم.. وبدأت أتلفت برقبتي في كل مكان.. وجدتني لست في شارع أو حي.. كنت داخل شقة مظلمة، معالمها معتمة.. ثم اتضح لي شيئا فشيئا، هذا الصالون يذكرني بها، أنا أعرف تلك الشقة تماما، ذات الصالون، الشرفة نفسها المطلة على الشارع، ذات ألوان الحائط، وركزت عيني على الشرفة التي تخرج منها ضحكات هيسترية عالية.. تحركت ببطء صوب مصدرها، ووجدت زوج عمتي المتوفى يقف ممسكا شمعة سوداء، وقد غادر سواد عينيه مقلتيه، يبتسم ويمسك بورقة تشبه أوراق البردي.. رفع عينيه ليراني، ثم ازدادت ضحكته المخيفة، ووجدته يصعد إلى سور الشرفة، ويلتفت إلي مرة أخرى ناظرا بخوف ورعب شديد، بعد كل هذه الضحكات، كأنه يرى الموت عندي، ثم رمى نفسه، ووجدتني أجري صوب السور، لأنظر إلى أسفل، لم أجد إلا ظلاما في ظلام، وعندما رفعت رأسي مرة أخرى كان أصعب شيء رأيته في حياتي كلها، عبارة عن

كتلة سوداء خلفي تماما، ولديه يدان ضخمتان، ووجه مريع بشكل كبير، لديه عدة قرون في رأسه، وعيناه واسعتان، كنت أشعر بأنفاسه تحرق جسدي، بينما بيد واحدة رفع جسدي الضئيل كله إلى أعلى، ليقربني منه، وأنا أكاد أختنق، وقد سكنت الدموع عيني من الاختناق، ثم كاد يفلتني في الظلام نفسه الذي سقط فيه زوج عمتي، لكنني رأيت عمر قد ظهر من العدم، ليحاول نزعي منه، ووجدته يرفعه بيده الأخرى، ليلقي به في الظلام.. صرخت شاهقة لأفتح عيني وأجدني على سريري، وقد فزع كل من في المنزل من صوت صرختي.. أشعلت أمي المصابيح، ووجدت أبي إلى جواري، وعمتي تدفع الباب للدخول، بينما لم يأت معهم عمر..

(٦)

عمر(٤)

كنت أعلم ما يدور في خلد عايدة، منذ أخبرتني أن الشقة أصبحت ملكها، كنت أعلم تماما أنها تكيدني بطفولة ساذجة، لكن ما أحزنني أنها الآن عرضة للشر، لقد باتت آخر كلمات الشيخ مالك تتردد في عقلي؛ أن الشر الذي سكن الشقة لن يترك كل من يمتلكها، أخشى عليها بالطبع، ولم تكن أبدا الأمور تمثل فارقا أساسيا، لو أن الظروف كانت أفضل.. تبادر إلى ذهني أن خالي ربما استغل سذاجة أمي وغلبتها وانتزع منها الشقة الوحيدة التي تمتلكها.. فكرت في أنه لو كان نقل ملكيتها لنفسه لما سكن كل هذا الحزن قلبي.. انتقل خالي يومها من أعز الأحباب إلى قلبي، إلى عدو انتزع حقي عنوة واستغل صغري.. لم أكن أعرف شيئا عن تعاملاته المالية مع أبي، كنت صغيرا جدا كي أستوعب أنه حقه وأقل من حقه بكثير.. ظللت أتهرب من عايدة وأتابع أخبارها من خلف باب غرفتي.. كنت أسمعها وهي تضحك مع أمها أو أمي، فأطمئن أنه لا شيء يحزن قد حدث.. أغرب ما في كل الأمر أنني لا أعلم الطريقة التي سيهاجمها بها ذلك الشر المستتر بالشقة.. لذا حرصت على أن أتلصص ليل نهار عليها، دون أن تدرك هي ذلك.. ذات يوم نادتني أمي للغداء لكني تعللت بالشبع، لم أكن أريد أن ألقاها، وكنت أريد أن أعتاد على غيابها الذي يبدو أنه سيدوم طويلا، كنت

أخشى نظراتها، لكنني كنت أراقبها، ما أن تدلف إلى غرفتها حتى أتسلل من النافذة لأراها.. وقد بدأت في جمع ألعابها وبعض ملابسها.. كان قلبي يدق مع كل قطعة تضعها في الحقيبة.. كل قطعة تتوارى عن عيني أتذكر عايدة وهى ترتديها.. إنها آخر مرة سأراها فيها.. لمحني خالي عندما كان قد حضر، وقد وقف مشدوها لما أفعل في الحديقة، وفي أثناء التفاتة منى، تلاقت أعيننا فارتبكت وكدت أسقط، لولا أن ثيابي علقت بشكل ما بنافذتي ورفعت جسدي لأرتمي في الغرفة.. كنت أعلم أن خالي سيفتح الباب في أي وقت، لذا أغلقتها بالمفتاح من الداخل.. وسمعت صوت خطوات أقدامه بالقرب من الباب، ولمحت انكسار ظله، بدأ تحريك الأكرة لكنه لم يصر على ذلك.. وابتعدت بعيدا، ارتميت على سريري وبكيت كل شيء، بكيت أبي الذي مات، وبكيت عايدة التي ستذهب، وبكيت رؤية خالي لي.. كانت مشاعري متداخلة بشكل غريب.. أحيانا تتجمع الأشياء فنذرف الدموع ولا سبب واحدا يكون قد سكن خاطرنا.. لا أعلم كم بقيت على هذه الحالة، لكن شيئا ما همس في أذني أنه لا مفر من كل هذا إلا إلى الله.. كنت أريد أن أتوضأ وأصلي، لكن هذا يتطلب أن أفتح الباب وأن أذهب إلى الحمام المجاور.. فاكتفيت أن أستخرج مصحفي وأقرأ السورة التي فتح عليها تلقائيا؛ كانت سورة الجن -مصادفة ليس أكثر- لكنها شكلت وعيا وقتها بشكل مثير، كل ما فهمته منها أن هناك جن صالح مثل البشر الصالح، وأنه هناك بشر استطاعوا أن ينشئوا أخوة أو صداقة بينهم وبين الجن.. كنت أريد

أن أستوعب حدوث ذلك.. وتساءلت إذا كان مثل تلك العلاقة موجودة، فيمكنني أن أتعلم كيفية حصول ذلك، يمكنني أن أستعين بهم في طرد ذلك الشر بعيدا عن عايدة وعن الشقة كلها.. تذكرت كل شيء تسبب في بكائي، وبدأت أبكي من جديد.. فتركت المصحف على المنضدة مغلقا، وقمت بفتح مزلاج باب الغرفة وارتميت متدثرا في غطائي، مخفيا كل جسدي فيه.. دقات على الباب متوالية.. وصوت خالي يصاحبها:

"عمر .. عمر" انفتح الباب واقترب خالي ورفع الغطاء عني، وجد الغطاء مبللا من فرط دموعي فأوقفني عنوة، ونظر إلي وأوصاني بأمي لأنه سيسافر، وحملني إلى الخارج.. لكنني همست في أذنه:"عايدة في خطر"

فوضع يده على شفاهي، وتحرك بي إلى الخارج، انتقلت عايدة للجلوس بجواري، وكان خالي يرقبنا بحذر.. تحدثوا جميعا في أمور كثيرة، لا أذكر منها شيئا الآن.. لكن ما لم أستطع أن أنساه هو وجه خالي المتجهم طوال الوقت.. علمت أن كلمتي مثلت له شيئا أو شعر بخوف حقيقي، ربما لأنني كنت أقولها بكل جدية، أو ربما هو نفسه انتابه شيء ما لم أدركه وقتها.. كل ما حدث بعد ذلك أننا أنهينا سهرتنا وعدت إلى غرفتي لأشعر بهواء بارد يدخلها على الرغم من أنى كنت قد أغلقت النافذة.. الهواء كان قويا لدرجة أن مصحفي المغلق قد فتح مرة أخرى، ولم تكن صدفة أبدا، أن يكون مفتوحا على السورة نفسها.. سورة الجن.. شعرت بأنفاس أحدهم تختلط بأنفاسي، على الرغم من ذلك، شعرت بثبات رهيب، وبراحة غريبة..

أنت تعلم الشعور بالأنس على الرغم من الوحدة.. الشعور بأن هناك من يقف خلف ظهرك لكنك مطمئن له.. هذا كان شعوري وقتها.. لكنني لم أدرك ماهية الأمر أو معناه، لأن الأمر لم يدم طويلا، فقد وجدت خالي يفتح الباب مرة أخرى، ومع فتحه الباب اختفى الهواء والشعور وكل شيء كان من قبل.. طلب مني أن أرتدي ثيابي وأن أصحبه إلى الخارج.. ارتديت ملابسي مسرعا لأجد عايدة تقف على السلم، وقد علقتْ عيناها بي، وأنا أضع كف يدي الصغير في كف أبيها.. كانت نظرات الاستغراب في عينيها، والتساؤل أعظم من أن تستطيع إخفاءه.. وما أن أصبحنا في الشارع.. حتى استوقف خالي سيارة أجرة، وطلب منه الذهاب بنا إلى مكان مشهور هنا لنجلس سويا ويحدثني وهو ينظر إلى عيني كأنه يختبر بذلك صدقي: "قلت لي إن عايدة في خطر.. ماذا كنت تقصد؟"

"كنت أقصد.. أنها أصبحت الآن.. أصبحت الآب..."

"ماذا أصبحت؟" اقترب ليجلس بجواري بدلا من أمامي.. ووضع يده على ظهري لأشعر بالثقة أكثر.. وأبدأ سرد كل شيء قد حدث بيني وبين الشيخ مالك قبل وفاته.. وتوقفت كثيرا عندما كنت أحاول نطق كلماته الأخيرة بالضبط.. التي كانت تتضمن أن منْ يمتلك الشقة سيكون في مواجهة مع الشر الذي يسكنها.. تجهم وجه خالي للحظات.. وأحمر وجهه ثم طلب من النادل حساب كوبي الشاي اللذين كان قد طلبهما لنا..

وأمسكني من يدي في الشارع وهو يسألني:

"هل تعرف أين يسكن صديقك عامر هذا؟"

أومأت برأسي لأهزها تعبيرا عن الحيرة.

"لقد أخبرني أنه يسكن في الشارع نفسه وبالقرب من منزلنا القديم.. الذي تتواجد به الشقة.. فجأة استوقف خالي سيارة أجرة أخرى، ويبدو أنه عزم على أمر ما.. لو كنت أعلم ما كان سيحدث له ليلتها، لما طاوعته على الذهاب معه إلى هناك.. إلى الشقة.. عندما وصلنا إلى الشارع.. بدا خالي سؤال بعض الجيران، عن فتى صغير في سني، يدعى عامر.. حتى إننا تقريبا مررنا على كل الأماكن السكنية في المنطقة.. واستوقفنا واحدا من كل مبنى على أقل تقدير.. لأبدأ أنا وصف ملامحه، لكننا لم نصل أبدا إلى أي عنوان له.. زفر خالي: "أنت متأكد أنه يسكن في الشارع نفسه؟"

"هو قال لي ذلك.. وهو منْ دلني على منزل الشيخ مالك.. كيف سيعرفه إن لم يكنْ من المكان نفسه؟"

أخرج خالي مفاتيحا معلقة بميدالية سوداء.. أعرفها جيدا، لطالما لعبت بها أو خبأتها من أبي لأمنعه من الخروج أو لمجرد المشاكسة معه..

"إذن علينا أن نجرب حظنا ونصعد إلى الشقة الآن"

قالها خالي.. وكأنه قرر أن يخوض مغامرة قبل سفره في الصباح..

(٧)

عمر(٥)

عندما أخرج خالي ميدالية المفاتيح، شعرت برجفة بسيطة في أوصالي، بل كان جسدي يهتز بصورة ارتجاف مخيف.. مما جعل خالي يلاحظ ذلك، ويقترب مني ليضع يده على رأسي فتبتل بكرات من العرق تكونت سريعا: "أنت خائف يا عمر؟" كان صوت اصطكاك أسناني أقوى من أن يمكنني حتى من الرد.. أخذني خالي من يدي، وتركني أسفل مدخل العمارة: "انتظرني هنا ولا تتحرك سأعود بعد قليل". صعد خالي الدرج، وأنا أجلس بالقرب من المدخل، بينما صوت أقدامه على السلم تصدر صريرا قويا، أرجعته لحالة السكون والوقت المتأخر، لكنني بعد فترة سمعته ينادي من أعلى السلم: "عمر، اتبعني هيا!". لم أجد بدا من الإسراع بالسير في المدخل واعتلاء السلالم لألحق به قبل أن يفتح باب الشقة.. كان وجهه متجهما ومتفاجئا لوجودي: "لماذا صعدت بما أنك كنت خائفا وترتجف؟".

- "لقد سمعتك تناديني".
- "أنا لم أناد".

وضع المفتاح في باب الشقة، وتقدم هو ليضع يده على أزرار المصابيح، لتضيء الشقة بأكملها.. واضعا قدمي خلفه تماما.. كل شيء فيها كما هو، الصالون والأبواب، وألوان الحائط.. اندفع خالي إلى الداخل ووقف في الطرقة المؤدية إلى الحمام.. ووقف أمام باب الحمام، ودفعه ركلا بقدمه: "كل ما تتصوره وهم يا عمر.. الشقة مثلها مثل باقي الشقق، مثلها مثل منزلنا تماما.. لا شيء فيها يستدعي الخوف منه أبدا، وها هي غرفة نومك أيضا، ودلف إليها بينما أنا كنت بالقرب من باب الشقة -في الصالون- شعرت بالخوف وحدي وبانقباض صدري، فأسرعت بإتباعه، رأيت أشيائي كما هي، سريري، دولابي، مرآتي الصغيرة، كل شيء.. كان خالي قد جلس على الملاءة التي تغطي السرير، ومد يده لأمسك أنا بها وأقف أمامه تماما.. كان يحدثني عن أن الخوف شعور طبيعي، وأنه يعرف مدى حبي له ولعايدة، وأنه سيكون على اتصال دائم بي، يريد مني أن أظل متفوقا في دراستي، وانتبه فجأة إلى أن عيني لم أرفعهما صوبه، وبدوت مركزا على شيء ما أسفل منه.. كانت قطرات من دماء تنزل من أسفل الملاءة إلى الأرض.. ثم بدأت تزيد وتزيد وانتبه خالي إليها فقام مفزعا: "ما هذا؟ من أين أتت تلك الدماء؟" ورفع الملاءة عن السرير، وانطفأ النور فجاءة، ليصرخ خالي صرخة مدوية.. فما رأيناه كان عبارة عن جسد مغطى بالشعر، ينتفض، ويئن، كحيوان جريح، الشعر يغطيه بالكامل.. كأنها امرأة تنزف.. أسنانها أنياب، عندما رفع خالي الملاءة، وجدناها تتقلب وترفع رأسها المغطاة

بالدماء، ثم صرخت فانطفأ النور، وبدأنا سويا بالصراخ.. أسرع خالي بالوثب إلى الخارج عند عتبة الباب.. بينما وقفت أنا صامدا وساكنا بعد نوبات صراخ كثيرة.. كان الوجه بشعا لكنه يتألم، صراخه صراخ ألم وتأوه.. بينما وقف خالي ناظرا إلى المرآة المعلقة بالحمام، كانت تعكس صورة أخرى لوجه آخر محترق، والنيران تحيط به، يظهر انعكاس اصفرارها في المرآة.. نظر خالي إلى الحائط الخالي الذي من المفترض أن تعكسه المرآة، فوجده يتحرك باتجاهه فصرخ في: "عمر! حاول أن تهرب الآن" وقعت عند عتبة الباب، ورأيت خالي يجاهد للخروج من بين الجدران التي تتحرك في الظلام تريد اعتصاره والخلاص منه.. فوقفت مسرعا، ولضآلة جسدي استطعت النفاذ، لكن خالي بدا أنه محشور بينهما.. هنا انفتح باب الشقة الذي كان مغلقا، ورأيت الكلب الضخم ذا الأنياب الغليظة يزمجر ويجري صوب باب الغرفة الذي أصبح ضيقا، ووقف بالقرب من خالي، بينما توقفت الجدران عن حركتها، وزمجر الكلب باتجاه الغرفة، وغاب هناك عند الملاءة الوجه الذي ينزف.. التقط خالي أنفاسه محاولا جذب جسده للخارج، فالجدران توقفت لكنها لم تعد إلى مكانها، وهو يحاول انتزاع جسده، أصبح هناك صوت همهمات بلغة لم أفهمها، كانت همهمات بأصوات غليظة ومختلفة، كان يقطعها صوت أنين وبكاء وانتحاب.. وزمجرة كلب.. كنت أرتجف مع كل صوت ويسقط قلبي بين أقدامي مع زمجرة الكلب.. لم أكن أحاول الفهم.. أحاول فقط الفرار، ومعي خالي، كنت أخشى أن يحدث له ما حدث لأبي،

وتصورت عايدة وما ستكون عليه إن أصاب أباها سوء.. حتما ستلصق الأمر كله بي، ولن تسامحني على جرم ما كنت فاعله أبدا.. أخيرا، انتزع خالي جسده، وأرتمى على الأرض يحاول جاهدا الزحف، يبدو أن قدميه لا تحملانه للوقوف، بينما شعرت بالجدران تتحرك، ثم التصقت ببعضها بعض، حتى إن باب غرفتي قد سد على الكلب والوحش صاحب الوجه الجريح.. وما أن حدث ذلك، حتى وجدت جسد خالي يرتفع عن الأرض قليلا.. نظرت إليه: "خالي، هل أنت بخير؟"، نظر ناحيتي وعيناه تحولتا إلى بياض كامل، وقال بصوت ليس صوته.. صوت كان مخيفا وغليظا ويبث الرعب في القلب، اهتز له جسدي كاملا: "لن يكون بخير، لقد أصبح جسده ملكي أنا، وسأتخلص منه الآن.. لكن بعد أن أتخلص منك.."

صرخت فيه: "خالي لا.. أرجوك لا تفعل"، مد يده إلى رقبتي ووجدتني أرتفع إلى أعلى، قرب السقف وتحرك بي صوب النافذة المطلة على الشارع، فبدأت استنجد به: "خالي، انقذني.. لا، لا تفعل ذلك بي.. أرجوك يا خالي"، فجأة انقض الكلب الأسود الضخم عليه من الخلف ليسقط بالقرب من النافذة، وتتخلى يده عن حملي، فأسقط أنا الآخر، "سوف أقتلك مثلما قتلتها"، كنت أظن أنه يحدثني، ووقع في نفسي، أنه يتحدث عن عايدة؛ "لا.. أرجوك.. عايدة ليس لها أي ذنب"، ضحك بصوت عال مخيف، وكانت ضحكاته شريرة ومخيفة، بينما زمجر الكلب وتراجع بجسده

استعدادا لوثبة أخرى، بينما الشرر تطاير من عينيه، وخالي يكرر ما يقوله: "سوف أقتلك مثلما قتلتها"، انقض الكلب على خالي، وصرخت أنا لتعود الإضاءة إلى الشقة كلها، وأجد وجه خالي تسيل منه الدماء، ولا يستطيع أن يتحرك، وعيناه دامعتان.. لكنه لا ينطق أبدا.. وقفت عند باب الشقة، وبدأت أدق أبواب الجيران، حتى انفتحت عدة أبواب وصرخت: "انقذوا خالي!" اندفعوا جميعا إلى الشقة، وحمل بعض الرجال خالي، الذي لم ينطق بأية كلمة، وطلب بعضهم الإسعاف ليحمله رجالها إلى السيارة.. بينما أنا أقف مرتجفا ومرتعبا منتظرا أن أصعد إلى جواره في السيارة.. لكن صوتا مألوفا لدي ناداني باسمي؛ "عمر، لا تذهب معه انتظر"

التفت إلى مصدره، فوجدته صديقي عامر.. وقد مزقت ثيابه، وهناك جرح في مقدمة رأسه وبالقرب من قلبه، فأسرعت إليه ليستند علي، ويقول لي بصوت خفيض: "اذهب الآن مع خالك.. وسوف آتي إليك في المنزل لأوضح لك كل شيء."، صعدت السيارة وأنا أرى وجه عامر وهو يشير لي من بعيد.. كان يتألم بحق.. لكن لماذا لم يصعد معنا السيارة؟ وكيف أصيب كل تلك الإصابات؟.. وأين كنت أنا؟ كنت أفكر في الأمر، لكن صوت هاتف خالي كان يرن، ووجدت زوجة خالي تصرخ في الجهة الأخرى: "احضر الآن.. عايدة رأت كابوسا وهي تبكي، وتريد أن تراك أمامها حالا أنت وعمر"، همهمت ثم قلت لها: "أنا مع خالي في طريقنا إلى المستشفى،

لقد تعرضنا لحادث و.." صرختْ بشدة بينما صرخت أمي التي كانت إلى جوارها في اللحظة نفسها..

(٨)

عامر (١)

كان علي أن أزور عمر في منزله في اليوم الثاني من الأحداث التي حدثت لخاله، وعلى إثرها ما حدث له.. كنت أراقب السيارة وهي تنطلق به إلى جوار خاله، وهو ينظر إلي يتأملني ويتأمل جروحي، ربما تساءل متى أصبت؟ ولماذا لم أصعد معهم إلى السيارة؟ ببساطة لأنني كنت إلى جوارهم في المعركة داخل الشقة.. وببساطة أكثر، لأن جروحي لن يستطيع أطباء البشر كلهم مداوتها، كان علي أن أذهب إلى أبي في المكان الذي تجمعنا فيه منذ أسابيع عديدة.. عمر لا يعلم أنني أشاركه السكن والمأوى داخل الشقة نفسها، وأنى أسكنها منذ أن وطئت قدم أباه فيها.. نعم، فنحن شركاء كل ساكن لها منذ نشأتها.. ولم يكن والد عمر هو أول من سكنها.. لقد قصت علي أمي قصص السابقين من سكانها.. تقريبا لم يشعروا يوما بوجودنا أو يفعلوا شيئا يجعلنا نخرج منها مقهورين كما فعل والد عمر.. لكن كيف سأخبر عمر كل هذا؟!.. وهل سيتقبلني على ما أنا عليه في الحقيقة؟! لا

أعلم!! لكني أرى من واجبي أن أخبره كل شيء، وليكن حكمه علي كما يجب أن يكون..

تذكرت في تلك الليلة التي سبقت لقائي به، وعزمي على إخباره كل شيء، كيف أخبرتني أمي أنها حملت بي في توقيت حمل أم عمر به.. وكما كان والدي سعيدا أنها ستنجب له صبيا، كان يدللها ويخبرها أنه يخطط أن يقوم بكل ما يستطيعه تجاه تأمين مستقبلي، كان سعيدا جدا لأنه سيصبح أبا، وكانت أمي سعيدة لسعادته، وعندما حانت لحظة مولدي ابتهج أبي لأنه يعلم أن الشقة خالية تماما من أسرة عمر، فقد فاجأتهم سيدة المنزل أن موعد ولادتها قد حان.. كانت أول عيون تلتقي بعيوني هي عيون أبي، تلقفني ومسح على الشعر الأسود الذي كان يغطيني، ثم رفعني إلى الأعلى كي أجد لفيفا من قومنا قد حضروا من كل صوب لتهنئة أبي ومؤازرة أمي، سألته أمي في لهفة ماذا ستسميه؟ قالها بكل ثقة: "عامر.. لقد سمعت الآن أن أصحاب الشقة قد رزقوا أيضا بمولد ذكر وأسموه عمر"

بعد أيام قليلة، بدأت التعود على العيش في الظلام.. هم لهم الأرض، ونحن لنا الأسقف والهواء.. كنت أراهم من حيث لا يرونني، فكرت ذات مرة أن أظهر لعمر الصغير وأتراقص على الحائط المقابل له.. فزع مني، وبكى بشدة، فأسرعت لتهدئته، لكن بكاءه تزايد، إلى أن أتت أمي، وأخذتني بعيدا، قبل أن تفتح أمه الباب.. من وقتها شددت علي أمي ألا

أحاول الظهور لبشري على وجه الأرض، وأن أصعب حالات ظهور الجن أمثالي هي التشكل على هيئة طير أو حيوان أو إنسان.. لم أقتنع ربما وقتها!! لكنني كنت مرغما على تنفيذ كل ما تطلبه مني، وبقي حلمي الوحيد أن أكبر أكثر وأن يزداد وعيي وأفعلها.. لطالما تخيلت نفسي مئات المرات في شكل بشري.. كنت أرى عمر الصغير يلعب الكرة ويراقص بعض الألعاب الإلكترونية.. كنت أرغب في مشاركته الأمر.. لكنني لم أملك وقتها سوى مراقبته من بعيد.. فقط من بعيد، حتى لا أتعرض للخطر أنا أو أي فرد من أفراد أسرتي.. كنت أتسلى وأتخيل نفسي مكانه.. "لماذا لم أكن إنسانا في الأصل؟! ولماذا يرهبنا البشر ويخافوننا؟!" قلتها لأمي وأنا أبدي شديد التعصب والمنرفزة.. أخبرتني وقتها أننا لسنا كأي جن، وأننا عمار البيوت، أمرنا الله أن نلازم كل منزل، كل مكان يسكنه بشري كي نمنع عنه إيذاء السحر، وأننا جن مسلم، يؤمن بالكتاب وبالنبي، وهدف خلقنا هو هدف خلق البشر نفسه، أن نعبد الله حق عبادته.. لكن البشر ضلوا، وبقينا نحن على هدينا.. كم ارتميت في حضن أمي وأخبرتني كثيرًا عن ملك من البشر أعطاه الله الملك والحكمة، وكان في طاعته ملايين الجن والبشر، كان يدعى سيدنا سليمان، وكانت أمي تردد بعدها عليه السلام، وكأنها ملتصقة بالاسم، قصت عليّ أمي قصته مع الجن الكافر الذي ساعد الشيطان بعد موت سليمان، وكفروا جميعا بما آمن به أقوام آخرون، وبدأوا في مزج تعاليم الشياطين في أسفار تدعى أسفار الشياطين، ومنذ ذلك الحين بدأوا

يتحكمون في البشر عن طريق إذلالاهم، وتقديم قرابين من دماء لهم، كي ينفذوا ما يطلبه البشر.. كانت أمي تقص عليَّ قصتهم، وأنا أتخيل كيف هو شكل تلك الشياطين الكافرة.. ولماذا هم ذوي بأس عنا، وكيف لإنسان أن يختار طريق الشر عن طريق الخير؟! لكن لله في خلقة شئون..

ذات يوم، عاد أبي إلينا غاضبا جدا، ويبدو عليه الضيق والانفعال، طلب مني ترك الغرفة التي تتواجد فيها أمي لأنه يحتاجها في أمر هام، لكن رغبتي في معرفة سبب غضبه جعلتني أراقبهما من بعيد.. همس أبي: "مثلما أخبرتك من قبل، يبدو أن ساكن الشقة هذا لن يترك الطريق الذي بدأ اتباعه، ويبدو أن لديه إصرار على جلب الشر إلى الشقة!" ضربت أمي صدرها وقالت: "لو كان ما تقوله صحيحا فعلينا أن نجد مكانا آخر غير هذه الشقة، ليس لنا قِبَلٌ مع الشر المستتر هنا"، فقال لها: "وأين نذهب؟! هذا بيتنا، منزلنا، المكان الذي ولد فيه وحيدنا.. لن أترك الأمر يمر مرور الكرام.. حتى لو كانت حياتي فداء بقائك وبقاء عامر.. هنا موطنه هو لا يعلم في الدنيا سوى هنا وفقط!". نظر أبي شذرا إلى المكان الذي أختبئ به.. ورفع من طبقة صوته: "عامر! تعالَ إلى هنا"، وأمسكني من أذني الطويلتين، وبدأ ليَّهما بقوة فصرخت... "لم تعدْ صغيرا لتلك الأمور الصبيانية"، دمعت عيناي، فوضع يداه على خدي، وبدأ تحريك حوافره الحادة بين الشعر الأسود في وجهي. "اسمعني جيدا؛ مهما حدث هنا، فهذا المكان هو بيتك، مملكتك، حتى لو اضطررنا إلى تركه، حتما يا بني سنعود..

لكن يجب أن نقاوم للنهاية، للنهاية يا عامر.. هل تفهمني؟!"، هززت رأسي موافقا، لكن الجلبة التي أحدثها ساكن الشقة في الصالون جعلتنا نسرع إلى الخارج.. لقد توسط الصالون والد عمر، ورفع السجاد الذي يغطي الأرضية بعيدا، وأخرج مدادا أحمرا وبدأ رسم نجمة سداسية، وإلى جانبها مربع به حروف غريبة، شعرت بالاختناق الشديد، وهو يخرج شمعة سوداء محفور عليها حروف لا أفهمها، وأشعلها ووقف في منتصف النجمة تماما.. أسرع أبي وأطفأ الشمعة بفمه، ابتلع نيرانها بداخله وسقط مغشيًّا عليه، فحملته أنا وأمي إلى الداخل، وشعرنا أن السقف الذي هو ملاذنا يحترق.. كل كُرة من الدخان تتحول إلى لهب.. دمعت عيناي بينما أمي قد عزمت على الذهاب إلى الصالون مرة أخرى.. تشكلت أمي في شكل كلب كبير أسود وهجمت على الرجل، فسقط على الأرض مغشيًّا عليه هو الآخر، وبدأت أمي مسح كل ما كتب على الأرضية وساعدتها أنا في تغطيتها مرة أخرى.. أيام قليلة مضت، وأبي يشعر بالألم ويتأوه بشدة.. أرسلتني أمي لإخبار أهلنا من عمار البيوت المجاورة ما حدث، وطلبت منهم التكتل معها لدرء الشر الذي أصبح وشيكا جدا، لم يستجب إلى دعوتها أحد، وعدت أجرُّ أذيال الخيبة.. نظرت إلى السماء يومها وهمست بصوتها الحنون: "لن يضيعنا الله يا ولدي"

كان بداخلي حقد على الرجل الذي فعل ذلك بأبي، كنت أريد أن أنتقم منه، أن أتسبب في ألم كبير له.. انتظرت حتى رأيت عمر يذهب إلى الحمام

ليلا، وعندما وجدته يحاول أن يرى نفسه في المرآة، خطرت لي فكرة أن أرهبه وأخيفه -فقط للتسلية- فأظهرت قروني وأذنيَّ خلفه، كنت ملتصقا به من الخلف، لكنه لم يتمالك نفسه وسقط في حمام الشقة، وشُجَّت رأسه واختلطت دماء رأسه بالماء النجس في الحمام.. لم أكن أعرف أن دماءه واختلاطها بهذا الماء كان الشيء المتبقي في الطقوس التي قام بها والده، كي يعود الشر الذي كان يسكن المكان كله قبل ذلك بعهود..

(٩)

عامر (٢)

في الليلة نفسها.. امتلأت الشقة برائحة شياط عالية.. كان هنالك شيء يحترق، ما هو؟! لا أعلم كنهه.. قمت بمرور على كل أسقف الشقة، وحتى غرفة عمر التي كان بها مريضا بعد سقوطه، وإلى جواره كانت هنالك أمه، ووقف أبوه عند باب الحجرة.. أصبحت بالقرب من عمر، أعلوه من فوقه لكن لم تكن لدي رغبة في الظهور مرة أخرى، فقط كنت أريد أن أعتذر منه، كنت أريد أن أعلم -على الأقل- أنه سيتحسن، سيكون أفضل، أنا من تسبب في إيذائه.. فجأة انتفض عمر، وعلى إثر انتفاضته كدت أسقط عليه، للحظة ظننت أنه يراني.. لكنه كان يحدق خلف أبيه، كان هناك على الحائط أبشع جنيٍّ رأيته في حياتي، كان وجهه بشعا مخيفا، حتى بالنسبة لجني مثلي، وقف عند الحائط خلف أبيه وابتسم ضاحكا، ونظر إليَّ بعين مليئة بالشر.. عين المحتل.. لقد قالها لي دون أن ينطق: "من اليوم ليس لك أو لأي أحد منكم مكان هنا". كنت أخشى الخروج من الغرفة، مظهره القوي يوحي بأنني لن أستطيع أن أفلت منه أو أهرب من براثن قوته، لكن أبي وعلى الرغم من مرضه ظهر بالقرب منه وبدأ يناوشه بمخالبه، كان أبي مريضا وقد أرهقه جدا أن يصارعه فصرخ فيَّ: "عامر.. عدْ إلى أمك.. كونوا بالقرب من المصحف"، فأسرعت بالخروج من الغرفة وأنا أرى هذا

الغريب وقد طوى رأس أبي تحت أقدامه، لكن أبي كرر صرخته فيَّ فتواريت مسرعا إلى حضن أمي، وسمعنا سويًّا صراخ أبي الشديد.. كنت قد هدأت، وبعد فترة حاولت التملص من بين يدي أمي، لكنها أبت أن تتركني حتى سمعنا صرخة النهاية.. وضعت أمي مخالبها على فمي، ونطقت بعدما بللت دموعها جزءا من صدري: "لقد قتله.. لقد مات أبوك يا عامر". بدأت أنتفض بكل جسدي محاولا نزع نفسي من بين يديها.. صرخت: "أبي! لا.. لا يمكن أن..." فكتمت فمي مرة أخرى..

كانت ليلة بكاء ونحيب.. لم أعدْ أنتظر أبي أو حتى أحاول مشاكسته كما كنا من ساعات.. لم أعدْ أسبب له تلك المشكلات!!.. لكن مهلا، قاتله هنا وأنا وأمي حبيسان في هذه الغرفة.. يجب أن أقتله، يجب أن أطرده من هنا.. "ما زلت صغيرا يا عامر.. كل ما نستطيع أن نفعله أن نترك هذا البيت ونرحل."

"نرحل!! إلى أين؟!"

"إلى مكان آخر يلجأ إليه أمثالنا ممن لا يملكون بيتًا"

هل هو الرحيل المرير إذن؟ أن تترك كل ما تحب، كل ما اعتادت عليه عيناك، كل شيء اختلطت أنفاسك بترابه مرغما، أن تترك رماد أبيك في ركن من سقف منزل، ألا تملك حق زيارته، أن تنهزم، أن تظل منكس الرأس ما حييت.. أرغمت على الرحيل، لكنني أقسمت على العودة يوما.. هنا وطني، هنا بيتي، هنا كان مولدي..

حملتني أمي ونفذنا من الحائط، وسارت بي إلى مكان بعيد.. رحاب مسجد لرجل عارفٍ بالله يدعى (إبراهيم الدسوقي) في كفر الشيخ.. كان المسجد ممتلئا بالبشر الذين لا مأوى لهم، وكثير من الجن عمار منازل مثلنا.. استقبلنا على عتبة المسجد عمار المسجد وخصصوا لنا مكانا للمبيت.. لم أنمْ يومها.. بالفعل تركت الشقة، لكنني معلقٌ بها..

عندما أصبح الصبح، تركت أمي نائمة وذهبت إلى هناك، إلى الشقة، كان الباب مفتوحا، وكان هناك صوت رجل يتلو القرآن.. اقتربت وتشجعت على الدخول، لكني غيرت هيئتي إلى هيئة كلب شرس.. لطالما كان أبي نفسه يتجسد في هيئته.. أظن أنني أشبهه تماما.. عندما تجسدت كان الشيخ يقرأ، ووالد عمر يقف بالقرب من الباب، بينما عمر يجلس على المقعد بحوار الشيخ.. فجأة، ظهر الكائن الذي قتل أبي.. كان يرقص بجوار جسد والد عمر.. يلتف حوله منتشيًا بما فعل بوالدي.. كان ينظر إليَّ في تشفٍّ وجرأة.. كانت جرأة المنتصر، بينما كل القرآن الذي يتلوه الشيخ لا يؤثر به.. وفجاءة أمسك برأسه، عندما بدأ الشيخ تلاوة أوائل سورة الصافات.. لم يجد بُدًّا من الهرب، لكنه استطاع دخول جسد والد عمر والتفت إليَّ، فأطحت بالباب في طريقي وانقضضت عليه، لكنه ترك الجسد مسرعا بالخروج منه ومد حافره ليجرحني، تفاديت الجرح لكنه كان قد أصاب والد عمر.. صرخ الشيخ فقد رآني، فاختفيت وسقط والد عمر على الأرض.. عدت إلى أمي مرتجفا، وقصصت عليها كل شيء قد حصل،

فاحتضنتني وبكيت.. لم أكنْ أقصد أن أوذيه.. أكرهه لأنه السبب في جلب هذا الشر.. لكنني لم أرد إيذاءه أبدا..

مر يومان، وعلمت بوفاته وأن عمر وأمه قد انتقلا للعيش مع قريب لهما، وردت إليَّ فكرة أن أتجسد في شكل صبي.. أن أكون مصدرا لمواساته، وأن أكون إلى جانبه كتعويض عما فعلت من إثم.. راقبته بحرص شديد، ثم اخترت اللحظة التي أظهر له فيها، وبدأت علاقتي به منذ ذلك الوقت.. أنا عامر كنت جارك في السكن، وسمعت عما حدث لكم.. كان عمر طفلًا ودودًا، لذا كان من السهل عليَّ أن أخدعه بتلك الحيلة.. ظللت أزوره بين حين وآخر، كان يصر على في معرفة منزل الشيخ مالك.. كنت أعلم مكانه لكنني وددت ألا أخبره، كنت أخشى أن يخبره بما فعلت.. وعندما زاد إصرار عمر ذهبت إليه في المدرسة، وساعدته على الهرب من السور، وأخذته إلى عنوان الشيخ مالك.. وما أن وصلنا إلى هناك، حتى تحججت بأنني لن أذهب معه.. في الحقيقة تركته يذهب إلى هناك وحده.. كنت أعلم أن الشيخ يعاني منذ فترة لأننا في مسجد الشيخ استقبلنا عَمار منزله بعد أيام من وصولنا، وحكوا لنا عن قوة الشيء الذي تسبب في طردهم هم الآخرين.. لكنني اختفيت من هيئتي البشرية، ولحقت به كنت أسمع الشيخ وهو يخبره أن أباه هو من أطلق هذا الشر.. وأن هذا الشر سيطارد مالكَ الشقة، وكل من كان له يدٌ في وجوده أو حاول إيقافه.. كنت أظن أنه سيطاردني أنا.. لكنه أتى من ناحية مطبخ الشيخ على شكل نيران كثيفة..

كان قد بدأ بالشيخ منذ فترة.. كنت حريصا على إنقاذ عمر، دفعت جسده إلى الخارج، وتحركت على سقف منزل الشيخ محاولا تحويل اتجاه نيرانه صوبي، ولصغر حجمي ومرونتي استطعت أنا أيضا الهرب.. ووجدت سيارة الإسعاف تقف، ويحمل رجالها عمر إلى داخلها..

بعد ذلك، لم أكنْ أعلم أن اليوم الذي حددته لمهاجمة هذا الشيء في الشقة، هو اليوم نفسه الذي قرر فيه عمر وخاله الذهاب إليها.. استطعت أن أخترق جدارها وأنا أقف في منتصفها مناديا إياه للخروج كي أفتك به.. لا أعلم كيف تملكتني الشجاعة لفعل ذلك، لكن يبدو أن السبب الرئيس هو ما فعله بعمر والشيخ مالك قبل ذلك بأيام.. خرج إليَّ وأنيابه تسيل منها الدماء، يبدو أنه حصل على جيفة أو ما شابه، ونظر إليَّ شاردا ليقول لي: "بمن أبدأ منكما؟!". كان يتحدث عن شخصين، بينما أقف أنا وحيدا في الصالون، لكن عيناه تحولتا باتجاه النافذة، كانت أمي تقف على حافتها.. وبدأت المعركة بينها وبينه، كانت قوية وشديدة، يبدو أن القاتل الذي يسبق الرمق الأخير يكون عظيما في كل شيء.. حاولت مساعدتها بكل ما أوتيت من قوة، لكنه ردني بمخلبة إلى أبعد حائط، وانتقلت المعركة إلى غرفة نوم عمر، في اللحظة نفسها التي فتح فيها باب الشقة، وظهر عمر وإلى جواره قريبه وأشعلوا المصابيح.. لم تشعر أمي بما حولها.. نحن نكره الضوء جدا، لا نرى فيه بصورة كاملة، لذا استطاع هذا الكيان أن يقوِّض قوتها وأن يسيطر عليها، حاولت إنقاذها، وبسرعة أسرعت إلى قطع الكهرباء، لكن

هذا الكائن كان قد غرز مخالبة في صدرها ورقبتها، ورماها على سرير عمر، وبدأ بتحريك الحائط كي لا أتمكن من إنقاذها.. كانت الدماء التي راها عمر وقريبه، دماء أمي في آخر معركة خُضْناها في رحلة استرداد الشقة.. فجأة، وعندما أيقن الكائن موتها، قرر أن ينتهز فرصة وجود عمر وقريبه.. وبدا أنه قرر موتهما هما أيضا تلك الليلة.. اندفعت بكل قوتي صوب الحائط، لأتمكن من إيقافها وإنقاذ قريب عمر، لكن الكائن لعب اللعبة نفسها مرة أخرى معي، بالطريقة نفسها.. اخترق جسد قريب عمر، ورفع عمر إلى حافة النافذة، فتشكلت إلى كلب وهاجمته لأسقطه على الأرض وأنقذ عمر، وفي الوقت نفسه انسحب من جسد قريبه.. وبدأ يهاجمني بمخالب، أصبت وجرحت جروحا غائرة.. لكن الأذى الذي سكن قلبي كان بشأن الرجل الآخر الذي أصبته.. ظهرت لعمر في أثناء نقل خاله، كنت أريد أن أعترف له بكل شيء.. لكن هل سيستطيع مسامحتي؟ هل سيتفهم ما أعنيه.. لقد جرب مثلي ترك وطنه.. أقصد منزله.. وقد فقدت أبي وأمي، وفقد هو أباه وربما سيفقد قريبه أيضا..

(١٠)

عامر (٣)

كان عليَّ أن أطبِّبَ جراحي بالذهاب إلى المأوى الذي أسكنه، بينما تطلعت عيون المريدين والمقيمين إليَّ وأنا أنزف من جروحي، كانت عيونهم يسكنها السؤال الذي كنت أخشاه؛ سؤالهم عن أمي.. كانت دمعاتي الساخنة كافية لإخبارهم، وإخبار البرية كلها أنني أصبحت وحيدا وشريدا ليس لي أحد، وربما لو أن جروحي تلك غائرة سألحق بأمي وأبي.. بعد عدة أيام، رفعني الجن الأكبر من عمار البيوت إلى أعلى ضريح الشيخ.. وقام أحد المريدين من البشر بالضرب على دف كبير ضخم؛ فانتفض البشر والجن من أماكنهم، وبدأوا يطوفون حول المقام عدة مرات، ثم بدأ كبيرهم المدح في أمجاد الله السماوية ومدح سيد الرسل.. شعرت بالارتياح مع تسلل رائحة مسك خالصة تعبق المكان كله، وبدأ البشر يتراصون في صفوف، ويحركون كفوفهم ووجوههم يمينا ويسارا.. مع تكرار كلمة (الله، الله)، كانت المرة الأولى التي أتذوق ترديدها في جماعة، وأشعر أنني أشم نسيما طيبا وكأنه يهب من الجنة، عرفت -فيما بعد- أن تلك الطقوس تسمى الحضرة.. منها ما هو طيب ومنها ما هو خبيث، فالطيب فيه ذكر لله ولرسوله وآل البيت.. والخبيث فيه تمسح بالبراويز الحديدية واستعانة بصاحب المقام، وكأن الأمر بيده لا بيد الله.. ظللت على هذا الوضع.. وبدأت أشعر بالخدر في كل

جسدي.. موضع آلامي بات لا يؤلمني.. أشعر أنني أرغب في التحرك.. علا صوت المريدين..

أنا جيت بيتك يطايب داوين..

برضا حبيبك يا رب الناس راضيين..

اتمم بنعمك عليه وإن كنت عطشان اسقيني..

يا رب الناس والإخلاص عني واحميني..

أنا جيت بيتك لأجل ما ترعاني..

تنساني الناس وأنت ما تنساني..

كنت أردد الكلمات وكأنني أحفظها عن ظهر قلب.. كانت الوجوه حولي يزداد ضيائها، كأنها تحولت إلى وجوه من نور رباني.. جعلني أشعر بالانتشاء للحظة، شعرت أنني لست وحيدًا.. وأن كل ما أمر به وسأمر به مقدر لي.. شعرت أن هناك يدا خفية تطبطب على صدري، تجفف دمعي، وجدتني أصرخ بكلمة (الله)، وكأنني أزيح كتلا من الهموم قد سكنتني، وشعرت بعدها أنني أقل وزنا وخفيفا كريشة في الهواء، وبثقل جفوني مما جعلني أستسلم لنوم عميق جدا لم أذق مثله سوى في أيامي الهادئة في وطني.. أقصد الشقة..

في الصباح كنت جاهزا جدا لأن أخبر عمر بكل شيء، لكن كان السؤال الذي لم أعرف إجابته؛ هل سيكون عمر جاهزا هو الآخر لمعرفته؟! لم أمتلك كثيرًا حينها سوى أنني ذهبت إلى المستشفى الذي يوجد فيها

قريبه.. كان عمر يجلس في الطرقة المظلمة بسبب قلة الإضاءة وضيق الجانبين، وكان إلى جواره فتاة صغيرة أعرفها، كنت أراها وهي تلعب بأشيائها إلى جواره في حديقة المنزل الذي يسكنه الآن.. كان عمر دامعا بينما انفتح باب الغرفة التي يرقد فيها قريبه، وسمعت الطبيب يتحدث إلى سيدة تسير بجواره: "لكنه من الصعب أن يسافر إلى لندن وهو في هذه الحالة.. إنه يعاني من شلل تام، وفقدان للنطق.. ولا أظن أن جسده سيتحمل عدة ساعات في طائرة و..."، قاطعته: "أنا أعلم صعوبة الأمر.. لكن لو لم نستطع السفر به اليوم، ستتحطم أحلام كبيرة لأسرتنا الصغيرة.. وأظنك تعلم أنه سعى طوال عمره للحصول على تلك الجنسية، وتعلم أيضا مدى التقدم الطبي هناك.. وأنا لن أهمل أمر علاجه.".

"كما تحبين.. لكن سأكتب أمر الخروج له، على مسئوليتك الشخصية.."

انصرف الطبيب.. واندفع عمر والفتاة إلى الغرفة.. لأجد أمه تمسك بكف الرجل الغائب عن الوعي.. بينما ترمقها السيدة الأخرى بنظرات نارية شديدة، كما أنها تنظر بعدم استلطاف إلى عمر.. جذبت يد الرجل من يدها عنوة، ووقفت إلى جواره، لتقول لكليهما: "لا أظن أن هناك لزوم لوجودكما هنا.. سوف أتصل بالمطار لإرسال سيارة إسعاف مجهزة لتنقلنا إلى هناك، وسأرسل من يأخذ الحقائب من المنزل.".

نهضت أم عمر والدموع تملأ وجنتيها: "كنت أقول لو أن بقاءه...."، نهرتها قائلة: "لا تقولي شيئا!! كفى ما حدث له ولنا جميعا بسببكم!"، قالتها وهي تنظر إلى عمر الواقف بجوار الفتاة وممسكا يدها بشدة: "عايدة"

انتفضت الفتاة على إثر صوت السيدة القوي..

"تعالَيْ إلى هنا"

سحبت يدها من بين أصابعه وسارت صوب السيدة.. لكن ظلت عيونها معلقة بعمر.. مر الوقت بينهما كأنه عمر كامل.. شعرت بدموعهما المتحجرة في العيون، شعرت بحرارة قلبيهما.. يسمونها لحظة الوداع الأخيرة.. سحبت أم عمر ابنها من يده إلى الخارج.. لكنه ظل ملتفتا صوب عايدة، بينما ضغطت أمها على شفتها السفلى كتهديد له.. بدا غير عابئ بما تفعل.. فأسرعت وأغلقت الباب خلفهما.. ظللت فترة معهما بالداخل.. سمعتها تجلس الفتاة على مقعد قريب منها.. الفتاة التي ما أن انغلق الباب حتى انفجرت باكية، وأظن عمر فعل الأمر نفسه.. تحدثت السيدة:

"عايدة، أريد منك أن تنسي أمر كل هؤلاء!!"

تُفاجَأ الفتاة وفتحت عينيها العسليتين على آخرهما! "نعم، نعم.. أقصد عمر وأمه، وأكثر من ذلك.. أريدك أن تنسي هذا البلد كله.. بعد ساعات سنصبح في بلاد أخرى.. بلاد ليس فيها أحد يشبههم، أو حتى

يتحدث لغتهم، سوف نأخذ والدك معنا، وهناك سنجد له علاجا.. من المؤكد أننا سنجد له علاجا"

"هل تلك البلاد تداوي ما تفعله العفاريت يامي؟!"

زفرت الأم: "هناك يداوي الأطباء كل شيء"

"عندما سنعود سيكون علينا أن نزور عمر وأمه و...."

"اصمتي"، ووضعت السيدة يدها على رأسها كناية عن ضجرها:

"لن نعود إلى هنا مهما حدث هناك.. لن تري هذا البلد مرة أخرى.. وأما عمر؛ فمن اليوم انسيْ أن هناك فتى يدعى عمر.. هل فهمتي؟!" قالتها وهي تلوح بيدها صوب خد الفتاة التي زاد بكاؤها..

كان على أن أتركهم وأذهب لأعرف ما حدث لعمر.. لذا تسللت من النافذة إلى أسفل، واتخذت طريقي إلى منزل قريبه، وهناك وجدت عمر يقف في الشرفة متأملا شيئا يضيء في السماء وصرخ على أمه:

"أمي تعالي.. هذه طيارة خالي.. هيا أشيري له بيدك.. هو هناك.. ولابد وأنه يرانا"

تدمع الأم وتقول:

"لم يذهبوا بعد يا عمر؛ طيارتهم في المساء، وحقائبهم مازالت هنا"

"الحقائب!!" هتف بالكلمة، وكأن أمرها لم يكن بباله.. جلس على مقعده وأخرج دفترا وعدة أقلام، وبدأ يكتب بخط كبير..

- عايدة..

لم أر ما يكتبه، لكنه كان يأخذ نفسا عميقا كي يستطيع كتابة سطر واحد.. وتارة يفرك يديه بالقلم، وينفخ فيهما ثم يقلب الصفحة.. ظل على هذه الحالة مدة طويلة، كنت أنا أفكر في أن أظهر له وأتحدث معه، لكن انشغاله بما يكتب جعلني أتراجع عن الأمر، وقررت أن أراقبه لعدة أيام أخر.. دوى صوت سيارة كبيرة، يستقلها عدة رجال، وقفت أمام البوابة.. وبدأت إشعال مصابيحها صوب غرفة عمر، بينما كانت أمه تتحرك على السلم لتفتح الباب لهم.. ظن عمر أنهم سيأخذون الحقائب إلى حيث عايدة.. لم يكن يدرك أن الفتاة وأمها معهم في السيارة.. أسرع بفتح حقيبة كبيرة، وبدأ يدسُّ ملزمة أوراقه بداخلها.. ووقف ينتظر الرجال وهم يمرون من الباب الكبير.. لمعت عيناه عندما رأى عايدة تسير إلى جوار أمها، كان يظن أنهم قرروا عدم السفر، لكن صوت أمها وهي توجه الرجال إلى مكان الحقائب أمات ذاك الشعور بداخله.. انتهز فرصة وجود الأم بالأعلى كي تجلب أشياء قد تحتاجها هناك، وتبدأ بوضعها في حقيبة جلبتها معها.. ووقف إلى جوار الفتاة، وبدأ يلامس بطرف إصبعه أصابعها، بينما هي ترجع يدها للخلف ليتمكن منها أكثر.. "هل ستأتين لزيارتنا؟!"

"أمي تقول.. لا"

"ماذا تريدين أن تصبحي في المستقبل؟"

وضعت إصبعها بالقرب من فمها

"أريد أن أصبح طبيبة.. أمي تقول إن الأطباء يستطيعون فعل كل شيء"

"وأنت.. ماذا تريد أن تصبح؟"

"مهندسًا"

"لا.. أريدك أن تكون طبيبًا مثلي"

"ولماذا لا تصبحين أنتِ مهندسة مثلي؟"

"أنتَ.. لا تصلح أن تكون مهندسا"

"وأنتِ.. لا تصلحين أن تكوني طبيبة"

"إذن ماذا أصلح أن أكون؟"

"بائعة ورد"

سحبت يدها منه عنوة.. وابتعدت بعيدا عنه:

"بائعة ورد!!.. يا له من عمل رديء" قالتها وهي تخرج لسانها له.. وكأنها قررت أن تنهي كل ما بينهما كلحظة خصام.. ونزلت السيدة السلم في صحبة الرجال.. وهم يحملون الحقائب.. بينما انزوى عمر بالقرب من غرفته.. ووقفت أمه لتغلق الباب خلفهم.. وعندما أغلقته توجه عمر إلى نافذته، ينظر إلى الفتاة وهي تستقل السيارة إلى جوار أمها، وتأبى أن تنظر إليه مجرد نظرة..

(١١)

عايدة (٣)

"ستتحقق أحلامك، لكن ليس بطريقتك، لسوف تعتذر منك في لحظة ما، إنها سارت عكس كل الاتجاهات."

مقولة أعجبتني في كتاب لا أذكر اسمه، لكنني دونتها في مفكرتي الصغيرة.. أنا الآن أبلغ من العمر خمسة وعشرين عاما.. مضت سنوات طويلة عن تلك اللحظة التي حملتني فيها أمي إلى داخل الطائرة المتجه إلى لندن، نظرت من خلف الزجاج لأرى البيوت أصبحت صغيرة جدا، نقاط مضيئة لا أكثر، بدأت الطائرة ترتفع وترتفع، والنقاط المضيئة تقل وتقل، حتى بدت نقطة واحدة، اعتبرتها النقطة التي يسكنها عمر وأمه، واعتبرتها منزلنا هناك على بعد أميال من مكاني هذا.. كل الأمور التي تلت تلك اللحظة، سرقتني وخطفتني في بحورها.. ما أن وطئت قدماي تلك البلاد، وأنا أشعر بتلك الغصة، أشعر أنني ضيف ثقيل الظل، أشعر أنني باقية فقط لأنه لم يعدْ لي أي شيء في أي مكان..

كانت أيامي الأولى هنا في صحبة أمي لاستخلاص بعض الأوراق في أروقة المكاتب الحكومية، وذلك لوضع أبي الصحي، وقد نجحنا في إدخاله أكبر مستشفى هنا، لكن آمالنا تحطمت في شفائه، وبقي أبي كما هو، يجلس على كرسي متحرك ولا يتكلم أو يهمس، وبسبب ذلك لم يكنْ لنا سوى

العيش على فتات الإعانات الاجتماعية التي خصصتها الدولة لكل من هم في مثل حالته، ولم تكنْ تلك الأموال كافية، مما دفع أمي للعمل في أحد مصانع الملابس القريب من مقر سكننا، وهكذا أصبحت أنا الطفلة الصغيرة مسئولة عن أبي..

أتذكر عمر كل صباح بطريقة غريبة جدا.. ولم تمر ليلة واحدة دون أن أرى تلك العيون النارية في الظلام، وأستمع إلى الضحكة الهستيرية وقت إسقاط عمر في الظلام، أتحدث هنا عن الكابوس الذي زارني تلك الليلة، وأصبح يأتيني بشكل منتظم، حتى إنني متى شعرت بوجوده، أيقنت أنني في سبات عميق، وما أن أفتح عيني في الصباح حتى أهمس لنفسي باسم عمر.

تدهورت أحوالنا المادية سريعا نظرا لارتفاع الإيجارات هنا، وكذلك تزايدت المصروفات الخاصة بعلاج أبي، مما دفع أمي إلى إرسال وسطاء لتطلب منهم بيع المنزل المخصص لنا في القاهرة لأي مشترٍ وبأي سعر، سألتها يومها عن عمر ومصيره هو وأمه، فأخبرتني أنها ستعطيهما نصيبهما أموالا، يستطيعون استئجار أو شراء مكان آخر.. كنت أود لو أعلم أين سيذهب عمر؟ أما زال يكرهني منذ آخر لقاء بيننا أم لا؟! سألتني أمي ذات مساء وهي تمسك بحزمة أموال كبيرة: "عزيزتي عايدة، أين تريدين أن نذهب كمكافأة لكِ؟"

"القاهرة!!" قلتها بعفوية.. وتغير وجه أمي..

"قلت ألف مرة.. أنه يتوجب عليكِ نسيان كل شيء يتعلق بحياتك الماضية هناك"

احمرَّ وجهي وبكيت، وذهبت إلى غرفة أبي وارتميت بين أحضانه، وبللت ملابسه بدموعي، بينما هو اكتفى أن يحرك عيونه تعاطفا معي..

مرت الأيام سريعا والتحقت بالمدرسة الإعدادية، وعلمت أن أمي استغلت الأموال التي تحصلت عليها من بيع المنزل بالقاهرة لشراء المصنع الذي كانت تعمل به، لكنه تعرض لخسائر كبيرة، ولم يدمْ الوضع كثيرا!! استيقظنا على انتقال إلى منزل أصغر.. وعملت أمي في المنزل بالقطعة.. وأصبحت الماديات تشكل عبئا كبيرا علينا.. كنت أجتهد في الدراسة.. الشيء الوحيد الذي أتقنه هنا، وتقربت من بعض الفتيات ذوات الأصول العربية مثلي.. إذ إنني لم أستطع الاندماج مع طلاب من أصول بريطانية أو أصول أخرى، كان يُنظر إلينا كأننا عبيد أتينا لنقتات عيشنا هنا، وكنت أسمع الفتيات يتحدثن عنا بعنصرية، وكمْ من معركة دارت رحاها بعيدا عن مسامع أمي.. كان من بين أصدقائي فتاة تدعى ماري من أصل لبناني، قدَّمت لي دعوة لزيارتها في حي راقٍ يبعد عن الحي الذي أقطنه ببضع أحياء، ووافقت أمي على مضضٍ.. نظرت إلى حديقة منزلهم وتصميمها الفني، فوجدتها تشبه إلى حد ما منزلي في القاهرة؛ الحديقة التي كنت ألهو بجوار عمر فيها، تدفقت الذكريات للحظة، لكنني لم أدعها تتملكني، كانت زيارتي لماري قصيرة بسبب طلب أمي بعدم التأخر في العودة، ماري أصرَّت

أن تريني شيئا ما خلف المنزل، كانت حديقة أكثر تنظيما وجمالا من الأمامية، تحتوي على ورد وأزهار جميلة..

"إنها جنة" هكذا هتفت أمامها..

"ما رأيك أن تساعديني في بيع بعضها و.."

"بائعة زهور يا عمر!! هكذا تحققت نبوءتك"، بدأ الأمر كمساعدة لماري صديقتي، ووجدت الأمر يتحول إلى ارتباط، ثم عشق.. الزهور الجميلة تستحق الاعتناء، وأنا تعلمت من ماري كيف أعتني بها.. كنا نأخذ بعضها ونقف على الطرقات نحاول أن نبيعها للمارين، وتحصلت على أول جنيهين من عملي هذا، وأخبرت أمي بما فعلت، ولأول مرة أرى وجه أبي يضيء.. كان ينظر إليَّ ولا يتحدث، وهو يراني أحمل باقات الورد وأسهر على تزينها، ثم أمضي في الطرقات أوزعها على كل من تراه عيني، كنت أبتسم للآخرين، وأهدي بعضًا منها لمن لا يمتلك ثمنها، واستطعت أن أتحصل على مبلغ مالي كبير ساهم في دفع مصروفاتي للمدرسة الثانوية، وكانت المدرسة التي التحقت بها مدرسة داخلية، مما جعلني أشعر بغربة فوق الغربة التي كنت أستشعرها، أصبحت أحل على منزلنا كضيفة تبيت ليلها ثمْ تسافر في الصباح.. انكببت على دراستي، وانقطع عملي في بيع الزهور، كنت طامعة في أن أحصل على منحة مجانية لدخول الجامعة، وبالفعل تحصلت عليها كي أعود إلى منزلنا مبتهجة بما حصلت عليه، لأجد سيارة الإسعاف تنقل أبي إلى المستشفى، لم يدمِ الأمر كثيرا.. فقدته جسديا بعد

سنوات عديدة من فقده نفسيا، سنوات طويلة ومريرة وأنا أتشوق للحظة التي سيشفى فيها.. أتخيل كيف سيحتضني، وأحاول تذكر كيف أثر احتضانه لي، أتصور كيف سيكون صوته وقد بات أكبر بكثير من آخر مرة حدثني فيها، كنت كل مرة أعود فيها إلى المنزل، أتصور أنني سأفتح باب غرفته لأجده قد غادر الغرفة، وأن أمي ستخبرني أنه في غرفتي يرعى بعض زهوري المعلقة على النافذة.. كنت أحمل الأمل دوما في صدري بأنه سيكون أفضل.. لم ينطفئ الأمل لحظة حتى في أحلك ظروفنا التي عشناها.. كان أبي بمثابة بطل خارق، حتما سينهض، حتما سيقف على قدمية، حتما سيقوم بإنقاذنا في اللحظة المناسبة.. لكن هذا كله لم يحدثْ ولن يحدث أبدا بعد هذا.. لقد ذهب أبي إلى حتفه منذ سنوات، وما نفعله اليوم فقط مراسم التأبين.. كانت الحياة هنا تخنقني بشدة.. وشعرت عدة مرات بالرغبة في الهرب من كل ذلك.. والعودة إلى عمر، حيث الأمان الذي كنت أشعر به وأصابعه تلتف حول أصابعي.. أفتقده بشدة وأرغب في أن أعود ولو للحظات..

مرت الأيام بعد وفاة أبي كئيبة، وأصبحت أمي أكثر قسوة معي، وكأنها كانت فقط تخبئ تلك القسوة خوفا من أن تتسبب في حزن أبي، لكن كان عليَّ أن أتحمَّل ذلك، كنت دوما أقيم التجربة كلها من أعلى.. أمي سيدة مجتمع رقيقة، تزوجت بمن أحبت وعاشت في كنفه سنوات من سعادة، كُلِّلَت بمولودة جميلة، بعدها بسنوات تعرض الزوج لحادث، كل آمالها

كزوجة وأم تلاشت وسرقت منها شيئا فشيئا، فجأة أصبحت مسئولة عن زوج قعيد ومريض وفتاة. وحيدة في مجتمع غريب لا يخضع لقوانين وعادات تربت هي عليها.. كان تفكيري في كل هذا يجعلني دوما أسامحها، واستشعر ما تتحمل من مآسٍ، كنت أعلم أنها ستفرح من كل قلبها عندما أخبرتها أنني تمكنت من إيجاد سكن بالقرب من الجامعة، كما أنني وجدت عملا يغطي مصروفاتي الدراسية.. بالطبع لم أعمل في شيء آخر، أصبحت فتاة كلية الطب في الصباح، وفي المساء عايدة بائعة الورد.. هل في نبوءة عمر شيء من الحقيقة؟! ربما!!

(١٢)

عايدة (٤)

أمضيت الليل كله في تحضير باقات الزهور، فأمس كانت ليلة عيد الميلاد، وكنت أحتاج إلى توصيل آخر طلبين إلى أصحابهم، من أجل أن أكمل المبلغ المتبقي لي كي أدفع مصروفات العام الدراسي.. لم يحضرْ عامل التوصيل، وتأخر في مشواره الذي ذهب إليه، ربما بسبب تكدس السيارات والازدحام الشديد في الشوارع، وهنا في لندن مثل شائع أظنه مناسبا جدا للحدث في ليلة الميلاد: (لا تسأل عن أحد) أو لترجمته حرفيا (لا تهتم لإمر أحد)، وأظن أنه وجب عليَّ الذهاب بنفسي لتسليم الباقتين المتبقيتين إلى أصحابهم، فقمت بإغلاق المتجر، وحملت الباقتين محتضنة إياهما إلى صدري، وتحركت صوب العنوان الأول، كان عنوانا أعرفه تماما، إنه منزل السير سام إدوارد محاسب في أحد البنوك القريبة من هنا، وقد اعتاد شراء الباقات لزوجته في كل مناسبة.. الاثنان يظهران حبا غير عاديٍّ في الطرقات والسيارة وحتى في أروقة منزلهما الصغير والجميل.. كنت مُحرجة بعض الشيء لأقف أمام باب المنزل وأدق الجرس.. لحظات وفتح الباب السير سام.. تبادلنا التحية ووضعت الباقة بين يديه، بينما كان مشغولا بقارورة من الخمر تفوح رائحتها من فمه، لوح إليَّ بها فاعتذرت منه بلطف بأنني لا أشرب الخمر، تفهم هو الأمر وتركني أرحل بسلام.. رأيت زوجته تحمل

باقة الورد منه فيعانقها عناقا شديدا من خلف الزجاج.. شعرت بالحرج أكثر عندما لمحتني السيدة، فأسرعت الخطى للخروج من المنزل، كان عليَّ أن أعود إلى متجر الورد، حيث إن العنوان التالي هو عنوان بالقرب من منزلي، ويستدعي الذهاب له العودة مرة أخرى من أمام المتجر، كنت أحمل الباقة بين يدي، بينما لمحت فتاة في مثل عمري تقريبا تقف أمام باب المتجر المغلق، ألقيت التحية عليها وبادلتني هي التحية وعرفتني بنفسها.. تدعى راشيل بنيامين، وهي صاحبة باقة الورد التي أحملها، إذ حُجِزت باسم والدها السيد بنيامين.. حملت عني الباقة وسارت إلى جواري، شعرت بأني على معرفة مسبقة معها، أو أمر مثل ذلك، فسألتها إن كنت قد لمحتها من قبل قرب المتجر، أخبرتني أني لو كنت رأيتها قبل ذلك فمؤكد أنه في المستشفى الذي تتدرب فيه في الأوقات العملية من دراستها، فراشيل تعمل ممرضة في ذلك المستشفى، وقد لمحتني بين الطالبات كثيرا.. لكن لم تتطرق أبدا للحديث معي، أخبرتني عن انطباعها الأول عني قائلة وكأنها تعرفني منذ زمن:

"يبدو أن عينيك تحملان حزنا قاتما"

"هي الحياة عزيزتي"

وصلنا إلى باب منزلهم، ودَعَتني في أدب للتعرف إلى أسرتها، تعللت بتأخر الوقت.. لكنها أصرت عليَّ للدخول ممازحة إياي:

"نحن لا نحتسي الخمر ولا نأكل الخنزير"

استغربت الأمر جدا.. قليل ما تقابل أحدا لا يفعل ذلك دون أن يكون من المسلمين، قطعت حيرتي قائلة:

"نحن من اليهود السبتيين"

لم أحملْ أي تعبير يشي بما فكرت به أو دار في عقلي، ولكي لا أشعرها بأي لغط وافقت على الدخول معها إلى منزلهم.

كان منزلًا متواضعا تتوسطه مدفأة يعلوها شمعدان غريب، تشتعل فوقه ست شمعات، وكان والدها السيد بنيامين هو من فتح الباب لنا، أخبرته راشيل أنني صديقتها عايدة، بينما اكتشفت أنه يعمل ضابطا في الخطوط الجوية البريطانية.. من صورة معلقة له بجوار طيارة تحمل رموز المملكة المتحدة أعلى الشمعدان والمدفأة.. كانت والدة راشيل سيدة في عقدها الخامس، لكنها مازالت تحتفظ بجمال أخاذ حتى بالنسبة لفتاة مثلي.. قدَّم لي والدها كوبا من عصير البرتقال، مزيلا جملته بكلمة حلال.. ابتسمت للطفه وقبلته منه.. في لحظات شعرت بالألفة التي أفتقدها في منزل كئيب آخر أقطنه أنا ووالدتي، على بعد أميال من هنا.. كنت قد اعتدت الوحدة وعدم الاختلاط، والتزمت بواجباتي نحو نفسي، وتناسيت أمر الليالي الدافئة القديمة، الليالي التي كانت تجمعني بأمي إلى جوار أبي المريض.. كان والد راشيل يدلعها ويطلق عليها اسم (راش طفلتي)، كم كان هذا شيئا عظيما لفتاة ظلت طوال أكثر من خمسة عشر عاما تشتاق إلى لحظة تدليل واحدة مثل تلك من أبيها، شعرت أن كآبتي ستفسد ليلتهم الجميلة،

فاستأذنت بالانصراف وهممت في لملمة أشيائي، بينما صَحبتني راش إلى الباب، فيما اختفى والدها في أحد الحجرات، وعندما كنت أستدير لأنصرف استوقفني صوت سيدة عجوز..

"انتظري أيتها الفتاة العربية" قالتها بعربية سليمة..

شعرت بالارتجاف، وانتابني قلق لا أعرف مصدره.. لم أتحدث العربية منذ زمن طويل، حتى أمي كانت حريصة أن يكون كل حديثنا في المنزل بإنجليزية صحيحة، وأخبرتني وقتها أنه عليَّ أن أتكيف مع الوضع، كي أقلل مرات العنصرية التي أتعرض لها، كان من ضمنها ارتداء التنورات القصيرة وإطلاق شعر رأسي دون حجاب، بينما كانت أمي حريصة في كل مرة ننتقي مكان دراسة أو سكن يخصنا أن يكون ليس بالقرب من أي تواجد لأي جالية عربية.. التفت على إثر الصوت، ووجدتها سيدة تبلغ الثمانين أو التسعين عاما، تجاعيد وجهها وضمور عينيها يخبراني أنها ليست أقل من ذلك.. كانت تجلس على كرسي متحرك يشبه الكرسي الذي كان مصاحبا لوالدي طويلا؛ مما جعلني أشعر بالعطف تجاهها..

"هل ستمضين قبل أن تتعرفي إلى باقي الأسرة؟!"

للحظة ظللت واقفة في مكاني، إلا أن راش غمزت لي بعينها أن أتقدم من السيدة وأسلم عليها يدا بيد.. مدت يدها إلى يدي بلطف واقتربت مني لتهمس لي..

"أنا أجلس في المنزل طوال اليوم وحدي.. يمكننا أن نصبح أصدقاء دون أن يعرف هؤلاء".. نظرت بعيني إليهم جميعا فجذبتني أكثر إليها..

"هم لا يفهمون عربيتنا ولغتنا.. لقد سئمت تعليمهم؛ لقد ولدوا بريطانيين وسيموتون بريطانيين"

"اخبريني هل أنتِ من مصر؟"

هززت رأسي موافقة ومنبهرة ببديهتها العالية..

تنهدت لتقول بإنجليزية بسيطة..

"إي جيبت... هناك ولد حبي الأول والأخير"

ابتسمت خجلا لانعزالها بي عنهم، وسحبت يدي من يدها:

"لديَّ كثيرٌ لأقصه عليك.. هل تحبين الحكايات الرومانسية؟"

هززت رأسي مرة أخرى.. كنت لا أجد كلمات لأقولها.. فأخبرتها أنني سأعود حتما لزيارتها، كي استمع إلى حكاياتها في مصر.. وما أن انطلقت للخارج، حتى شعرت بنشوة غريبة وفرحة عارمة يتراقص لها قلبي.. هذه المرة الأولى التي أنجح فيها ببناء علاقة مع أسرة كاملة.. كنت دوما منغلقة على نفسي، حتى في مسألة الصداقات مع الفتيات أو الفتيان.. انتبهت لشاب وفتاة بالقرب من الحائط المقابل.. يتحدث إليها همسا ويمسك كف يدها بيده بين أصابعه.. تذكرت عمر تلك الليلة أيضا.. لأجدني أسرح في أمور عديدة تخصه.. يا تُرى هل أصبح في مثل طول هذا الفتى؟ هل أصبح وسيما أكثر منه؟ هل نسيني؟ هل أحب فتاة؟ وربما يكون معها الآن يقضي

ليلة الميلاد؟ للحظة حزنت وفكرت في الحكايات والقصص الرومانسية التي ستخبرني بها جدة راش، وشعرت بشيء غريب ينتابني دوما، كنت أعقد تلك المقارنات كلما حاول أحد الفتيان التقرب مني، دوما كان هناك عهد غير منطوق بيننا، يجعلني أفكر في أن عمر إلى الآن ليس له الحق في نسياني، أو أن يصح له أن يحب فتاة أخرى غيري.. شعرت بالحزن وانطفأت فرحتي التي كانت تصاحبني منذ أن غادرت منزل راش.. لكنني عزمت على أن أقوم بزيارة الجدة في الصباح بعد انتهاء دراستي في الفترة التي خصصتها لراحتي، قبل الانهماك في عملي بمتجر الورد، كنت أريد أن أستمع لأي شيء يقربني من مصر.. وكأنها ستحدثني عن عمر..

(١٣)

عايدة (٥)

كان عليَّ أن أذهب إلى منزل راش، الصديقة الجديدة التي تعرفت إليها وعلى أسرتها ليلة أمس، لكن اليوم الدراسي كان طويلا جدًّا، كما أنني لم أستطع النوم جيدا ككل ليلة، فكرت في أن أؤجل الذهاب إليهم، وأن أستغل بعض الوقت عقب إنهاء الدراسة في النوم في مكتبة الجامعة، وما أن أغمضت عيني حتى رأيت وجهًا بشعًا مخيفًا، يكسوه الشعر الأسود من كل جانب، كان فمه مفتوحا على آخره بالقرب من وجهي، فجأة صرخت وعلى إثر صرختي، صرخ هو الآخر وانتفضت لأجدنني على مقعدي الذي غفوت عليه، شعرت بالضيق والألم، وأصبحت متشائمة بشكل غير عادى من اليوم ومن الحياة كلها، هذه أول مرة يزورني هذا الشيء في ساعات النهار.. كنت قد اعتدت ظهوره في نومي، كان دوما الكابوس نفسه.. أنا أجري في شوارع خالية ومظلمة، وهنالك كلاب تنبح عليَّ من كل اتجاه، بينما هذا الكائن نفسه يجري خلفي على أربعة، وأنا أصرخ في عمر لينقذني، وتارة في أبي، ولكن لا أحد منهما يستجيب.. فقط أنفذ من شارع مظلم إلى شارع أكثر ظلمة، ثم أفاجأ في نهايته بانسداده.. فأقف باكية مستسلمة، بينما يظل هذا الكائن يغطيني ويغطي جزءا من الحائط خلفي.. أصرخ مرتعشة لأجدني في سريري.. أمر مفزع ومخيف ومتكرر.. لكنني تعودت عليه.. ما

أن أخبرت أمي الأمر، وأنه يتكرر معي، أخذتني إلى مسجد الجالية هنا، وقصَّت على أحد الشيوخ الأمر، فأخبرها أن عليَّ الالتزام بالصلاة، وأن أضع المصحف تحت وسادتي، لكن الأمر تكرر حتى مع ارتدائي سلسلة بها آية الكرسي، وهي من آيات من سورة البقرة الحافظة من الشر.. لم تفقدْ أمي الأمل، حتى إنها أخذتني إلى حسينية تخص الشيعة، وطلبت من شيخ هناك عمل حجاب لي، وبالفعل دسته هي في الوسادة أيضا، وعندما لم يعط كل هذا ناتجا؛ كانت آخر زيارة لنا إلى كنيسة كبرى هنا، وقصت أمري للقس المتواجد بها، فأخبرها أنه لا يملك لي من الأمر شيئا، ورجعنا نجر أذيال الخيبة والألم.. بعد فترة كنت قد اعتدت الأمر، وأصبحت أسترق ساعات نومي بالنهار، أما الليل فأنا أجري، وعندما أستفيق أجدني ألهث بشكل كبير.. وما حدث اليوم أغاظني جدا، وجعلني في حالة سيئة ظاهرة وبادية على ملامحي.

ذهبت إلى متجر الورد الذي أعمل به، ورأيت جاك عامل التوصيل، قابلني بابتسامة "نهارك سعيد آنسة أيدى"، هو يستصعب دوما اسم "عايدة"، لم أستطعْ الابتسام.. شعر هو أن عبوس وجهي بسبب تركه لي ليلة أمس.. فحاول أن يبدي لطفًا تجاه ذلك.. "أنا أعتذر منك عن ليلة أمس، كانت ليلة الميلاد كما تعلمين، وفي آخر طلبية استلمتها دعاني صاحبها لاحتساء كأس، لكنني شربت قارورتين حتى تجمدت في مكاني، أنا أعتذر منك بشدة آنسة آيدي، وسأعوضك عن ذلك الأمر، اليوم هو التالي ليوم

الميلاد، وأظن أنه لن يزورنا أحد لشراء الورد.. لذا أقترح عليك الذهاب للمنزل، وأنا سأدبر أي أمر يرد عليَّ". كان ما قاله هو ما أحتاجه تماما، جسدي أشعر به مازال خائفا من الكابوس.. أريد أن أستريح، أن أتمدد فقط في مكان معزول، كي أسترد روحي مرة أخرى.. وقفت بجوار حوض الزهور الأمامي وناديته: "جاك!! لا تنسَ أن تروي تلك الأحواض"، قلتها وأنا أحمل حقيبتي من فوق المقعد، وقد عزمت أن أفعل ما نويت.. وما أن سرْت في الطريق إلى المنزل، حتى رأيت فتاة ترتدي خوذة معدنية، وتقود دراجة، تتخذ الطريق العكسي وتشير بيدها.. "عايدة" تسمرت مكاني وتوقفت.. هي خلعت خوذتها لتبتسم..

"راشيل!!"

اقتربت مني.. "يبدو أنك مغادرة، هذا من حظ جدتي.. لقد أرسلتني لتبلغك بأنها تنتظرك لتحتسي معها قدح قهوة عربي.. لكن لا تدعيها تقرأ لكِ الفنجان أبدا!!"

"أتعرف قراءة الفنجان!"

"جدتي تعرف كل شيء.. تقرأ الفنجان، وتضرب الحظ.. هي ماهرة في تلك الأمور، لكن لا تدعيها تقرأ لك؛ لأنها تأتي لك بتاريخك كله"

" تاريخي كله؟!"

"نعم، لقد صنعت لي فضيحة، عندما أخبرتهم جميعًا أنني على علاقة بسام إدوارد"

"سام إدوارد؟! أستاذنا في الجامعة والطبيب في.."

"هكذا قالت هي من أول نظرة إلى قاع فنجاني"

"لا عليك.. أنا سأذهب إلى منزلي"

"لا تقولي ذلك يا عايدة.. جدتي ستحزن إن لم تفعلي.. هيا اركبي خلفي، لن أتركك تمضي"

على مضض، ركبت خلفها.. وأنا أشعر بشيء غريب يسري في جسدي كله.. ماذا سيكشف لجدتها قدح قهوة سأحتسيه؟! حتما فكرت في أن أعتذر من راش بأي حجة، لكنها لم تكن لتسمعني وهي ترتدي تلك الخوذة..

أمام منزلها ركنت راش الدراجة.. ودخلنا إلى الصالون معا.. نادت بصوت عال:

"جدتي!! هذه عايدة.. قبضت عليها كما طلبت مني"

انفتح باب غرفة السيدة القعيدة.. وبدأت تتحرك، إلى أن أصبحت بالقرب مني، نظرت شذرا إلى راش: "هيا احضري قهوتي وقهوة عايدة، وأنت يا عايدة اتبعيني، لنجلس في التراس المطل على الحديقة..". اتبعتها وأنا أدفع المقعد بها.. حتى جلسنا إلى طاولة عليها باقة الزهور التي ابتاعوها مني ليلة أمس، وجلست في مواجهتها تماما.. "تستغربين من نطقي العربية بطلاقة؟!"

"أبدا.. لكن مناداتي بالعربية فاجأني"

"لقد قضيت شبابي كله في القاهرة.. كان لدينا منزل هناك.. وأنت هل لديكم منزلا هناك؟!"

"كان لدينا أيضا.. اضطرَّت أمي لبيعه كي نستطيع العيش هنا و..."

"وماذا؟!"

"هناك شقة في عقار سجلها أبي باسمي، قبل وفاته بسنوات.. كنت صغيرة"

"أوه.. تستطيعين العودة إذن"

"ليس شرطا"

"بل شرطا عزيزتي.. نحن نشبه الطيور تماما، نحوم وندور، لكن لابد من مأوى نأوي إليه في آخر الرحلة.. ومنزلك هذا هو المأوى الأخير لك"

"لا أعتقد ذلك.. لقد طار أبي وتوفي هنا، ولم يدفن هناك"

"ربما حظكِ، أفضل من حظه"

اقتربت مني برأسها: "ما هذا الذي أسفل عينيك؟ ألا تنامين ليلا بشكل جيد؟"

شعرت بالارتباك.. وشعرت هي بذلك..

"أهو حبيبٌ لوَّع حبه قلبك؟"

ابتسمت وهززت رأسي نافية الأمر.

"لا تكذبي عليَّ!!"

أحضرت راش قدحين من القهوة.. فابتسمت الجدة لتقول:

"سوف أعرف بنفسي بعد قليل.."

رفعت قدح القهوة لأحتسي منه رشفة، كان مذاقه رائعا بالفعل.. وشعرت أنني كنت أحتاج له مادام أنه لا سبيل للنوم مجددا.. احتست الجدة قدحها ونظرت إليَّ:

"هل مازالت مصر جميلة كما هي؟"

"لقد تركتها صغيرة جدا.. لكن كل ما أذكره فيها كان جميلا بحق"

لا أدري لماذا لم أتذكر منها أي شيء؛ سوى عمر فقط!!

أكملت ارتشاف قهوتي، ووضعت قدحي على الطاولة، فأمسكت به الجدة..

"أأنت مستعدة لكشف أسرارك؟"

"ليس لدي أسرار" نظرت إلى راش التي غمزت بعينها..

"أنا لست مثل راش و..."

قاطعتني: "انتظري سأنظر بنفسي".. أمسكت الجدة بالقدح، ورفعته في الهواء، وبدأت تدوره بيدها، ثم وضعت عليه قطعة الفخار التي تكون أسفله، ثم رفعته مرة أخرى بالقرب من وجهها، ووضعت يدها الخالية في جيب على جانب ذراع المقعد، أخرجت منه نظارتها، ثم نظرت بإمعان فيه، دققت بشدة، ثم شهقت وصرخت في وجهي:

"مستحيل!! أنت في خطر يا عايدة"

(١٤)

عمر(٦)

إنها ليلة عيد الميلاد.. لقدْ مر على ذهاب عايدة، بلا عودة، سنوات عديدة.. أصبحت فيها عمر آخر، غير الذي عرفته طفلا.. أنا الآن أقف أمام المرآة بنصف جسدي العاري، أدخن آخر سيجارة تبقت في علبة سجائري، وخلفي سريري المتهالك ترقد عليه فتاة ليل لليلة واحدة، هكذا كنت، والآن أصبحت أتساءل متى ستكون اللحظة التي أجلس فيها مع عايدة، وأبدأ في تشريح نفسي أمامها، أرمي بكل تفاصيل السنين الماضية بين يديها، أخبرها أن العالم لا يحب البراءة، وأن أحلامنا على بساطتها كانت عصية التحقيق، سأخبرها حتما عن عامر، ذلك الجني الذي قام بمواساتي حين رحلت هي، عامر الذي حاول أن يخبرني أن أبي كان السبب الأول لكل ما حدث في حياتنا جميعا، عامر الجني المسكين مثلنا الذي فقد أباه وأمه، مثلما حدث معي على الأقل، أنت لا تعرفين يا عايدة أن أمي توفيت قبل سنوات، أنت لا تعرفين لماذا توفيت!! لأننا أصبحنا فقراء.. والفقراء حتما يموتون!! لأن الدنيا لا تحتمل سماع صخب أقدامهم عليها.. منذ اللحظة التي غادرتي فيها، وانتظرت أنا منك نظرة أخيرة، نظرة أخيرة كانت ستمثل لي وعدا بالعودة، وعدا بأنك في هذه اللحظة تفكرين فيَّ، وتتخيلين كيف أصبحت! أنا أصبحت مهندسا مثلما حلمت يوما وأخبرتك، لكنني

نسيت أن أخبرك يومها أنني سأصبح مهندسا فاشلا، يبدو أن حلمي كان يصاحبه الفشل دوما في كل شيء.. منذ أن أغلقت البوابة الحديدية خلف السيارة التي حملتك لبلاد لن أستطيع أن أصلها يوما، وأنا أعيش على حطام عمر الذي كان يوما يمسك أصابعك.. أتساءل عن حلمك أنت الأخرى!! لابد وأنك أصبحت كما كنتِ ترغبين، وربما تكونين في السنة النهائية.. لديك المال الذي حتما سيحقق كل ما تحلمين به.. ربما أنتِ الآن تقودين سيارتك، وإلى جوارك شاب ذو عيون زرقاء وشعر أشقر، ثم تنتهي ليلتك في منزلك أو منزله، أو ربما تزوجتِ يا عايدة، وأصبحت أمًّا، في كل الأحوال أنا ما زلت أتمنى لك الخير، أحمله في قلبي لك دوما.. لم يكن ما بيننا أبدا حب رجل لفتاة تسكن أحلامه؛ لكنه كان حبا لمنْ يشبهنا، لن نقابل في حياتنا منْ يفهمنا بقلبه قبل عقله مثلك.. كنا صغيرين وتفرقنا، ولم نعرفْ وقتها غير أنفسنا، منذ تركتني يا عايدة وأنا حزين، وقد طفح حزني على عيني حتى سكنها، أمسى ضحكي كئيبًا، حتى عامر الذي زارني في الليلة نفسها حاول بقدر استطاعته أن يكون لي أنيسا وصاحبا، علمني الصلاة وعلمني كثيرًا عن الحياة، أخذني إلى مكان وجدت فيه راحتي، وكان معي يوم أرسلتْ أمكِ تطلب بيع البيت.. اضطرت أمي أن تنزل على قرارها، وأخذتني من يدي ومعنا بضع أشياء من أشيائنا إلى مكان مزدحم، كانت حارة شعبية ممتلئة بالفقراء والمساكين والبلطجية، كان مكان يحكمه كل شيء وأي شيء قوي، لم نستطعْ جلب كل مقتنياتنا، فالمكان هنالك غرفة

ضيقة أعلى سطح عمارة متهالكة.. مرت أيام ونحن نعاني من ضيق الحال، حتى إن أمي اضطرت للعمل.. هل تدركين ما العمل الذي وجدته؟! عاملة في مستشفى ليلي، تدور على الغرف والطرقات تقوم بمسحها وتنظيفها، بينما تبحث في كل غرفة غادر صاحبها عنْ بقايا طعام لتحمله إليَّ.. كان قرب عامر مني سببا في عدم ثورتي على الأمر، كنت أحاول أن أبتلع الصبر وأنا أرى أمي تمسك كيسًا ممتلئًا ببقايا العيش وبقايا الأطعمة، كنت أنظر إلى عينيها يا عايدة وأراك فيها، أقسم لكِ أنني لم أكن كارها أمك أو حاقدا عليكِ.. لكني وقتها كنت ثائرا على كل شيء، كنا قد وصلنا إلى القاع.. أصبحت أخاف الناس، مثلما أخافني عامر يوم أن ظهر لي في الحمام، أصبحت أخشى الظلام، وأبيت ليلي تحت ضوء مصباح متراقص.. جربت أن أعمل في كل شيء، وأي شيء يأتي بأموال تجعلنا نستطيع العيش لأيام.. ضعف بصر أمي، وبدأ المرض يأكل جسدها، رقدت كمنْ لن يقوم مرة أخرى، رقدت وكأنما ضربتها الدنيا ضربتها الأخيرة.. أجلستني بالقرب منها وأنا أحاول تجفيف عرقها من على جبينها، أخبرتني أمرا ما دار في الشقة، كان أبي كما تعلمين ميسور الحال، كان يتاجر في العطارة ويبتاعها من بلاد بعيدة وغريبة.. وذات يوم أخبره رجلٌ من أصل أوغندي أنه يريد أن يخبره سرًّا ما يخص المكان الذي نسكنه، أقصد العمارة كلها.. أخبر أبي في همس أنه يستطيع رصد المقابر الفرعونية القديمة.. وأن أسفل تلك العمارة كنزا مخبأ، صدقه أبي مع الأسف!! وبدأ بسحب كل أمواله من السوق،

وأحضر الرجل وكان معه مساعديه، وبدأوا الحفر من القبو في المساء، وفي ساعات متأخرة من الليل، أمضوا أكثر من ثلاثة أشهر، وهم يَعِدون أبي أن الكنز تبقى عليه أيام.. كان يريد أن يغتنمه لنفسه، أن يؤمن به مستقبلي، لكن الرجل الأوغندي تركه وسافر، حار أبي في الأمر، وبدأ يبحث بنفسه في تاريخ الجن، وطرق تحضيرهم، اشترى عدة كتب، وبدأ يتدرب على الأمر بنفسه، نزل إلى قبو العمارة، وبدأ رسم الرموز والعلامات الغريبة، ثم اتعبه فعل ذلك، فراح في سبات عميق.. ورأى الكائن الشرير نفسه الذي رأيته أنا أكثر من مرة.. حضر إليه وكأنه قادم من الظلام، يجلس على كرسي من الذهب، ويضحك، وتبرز أنيابه.. ارتجف أبي حين رآه وسأله:

"من أنت؟! وماذا تريد؟!"

زادت قهقهة الكيان، ليقول له:

"أنت من تريد، وليس أنا!!"

"أنا أريد الكنز"

"إن كنت تريد الكنز، فاطلق الحارس وحرره"

"كيف؟"

"إن كنت تريد الكنز، فاطلق الحارس وحرره"

أفاق أبي وهرول إلى أمي، أخبرها كل شيء حدث معه، لكنها حاولت أن تثنيه عن ذلك الطريق، بدأ يبحث بشتى الطرق عن الطريقة التي يحرر بها حارس المقابر الفرعونية.. وبدأ البحث عن الطلاسم التي تخص هذا الأمر،

لكنه كان في كل مرة يقوم بها بعمل الطقوس يفشل الأمر.. قرأ في أحد الكتب، أن الحارس لا يتحرر سوى بدماء.. كانت أمواله قد نضبت، وكان تركه للتجارة يوحي بالقادم السيء.. فلجأ أبي إلى أبيك ليقترض منه بعض الأموال.. وكان أبوك كعهده دوما عند الحاجة إليه، لا يتردد.. وبالفعل أعطى أبي المال.. جرب أبي أن يذبح خروفا في القبو، لكن الكائن نفسه زاره في المنام غاضبا وعيناه تشتعل نارا..

"حرر الحارس بدماء أخرى"

اشترى أبي عجلا ضخما وذبحه في القبو، لكن الأمر أيضا فشل.. كل هذا جعل الجيران يحتارون في الأمر. ولأنهم جميعا شركاء فيه، هددوه باللجوء إلى الشرطة مما كلف أبي إحضار عمال، وردم كل ما قام بفحته أسفل البناية..

وفي تلك الليلة التي سبقت ظهور عامر لي، كان أبي على موعد مع طقوس أخرى تعلمها من الكائن نفسه الذي تكررت زياراته لأبي.. كان الكائن يحتاج إلى دماء، وقدمتها أنا وعامر ليلة شج رأسي وفقدي الوعي بالحمام، ومن يومها انتشر الشر في الشقة.. كل ما أخشاه الآن أن يكون هذا الكائن يطاردك أنتِ، لم أنسْ قط ما أخبرني به الشيخ مالك؛ أنه سيظل يطارد مالك الشقة وهو أنتِ.. قصَّت أمي عليَّ كل شيء، وكأنها كانت تقدم لي ما يجعلني طوال عمري عاذرا لأمك على ما فعلته بنا لأكون غير حامل لأي شعور يسيء لها ولكِ، على الرغم مما عانيناه منذ تركنا منزلكم في

المعادي وجئنا هنا.. أغمضت أمي ليلتها عينها لتستريح من الألم، وحضر عامر إليَّ بالخارج، كنت أبكي بشدة وهو يحاول أن يحدثني عن الصبر وعن الرضا، وعن كل سمة لن يجدي أن أتحلى بها في إنقاذ أمي.. التفت إليه وخطرت على بالي فكرة:

"عامر ألست من الجن؟"

هز رأسه موافقا.. "لماذا لا تحضر لي كثيرًا من الأموال، كي أعالج أمي في مستشفى كبير؟"

"لا أستطيع فعل ذلك"

"إذن عالجها.. هيا ضعْ يدك على موضع آلامها وارمِ بها بعيدا"

"عمر.. أنا لا أستطيع صنع شيء.. شفاء أمك وغناك أنت في يد الله فقط"

"إذن لمَ تقف بجواري؟ هيا اذهب من هنا.. لا أريد أن أراك طوال حياتي"

اختفى عامر منذ تلك الليلة.. ولم تَشَأْ أمي البقاء ليلة أخرى، وحيدة صعدت روحها المكلومة والمتعبة إلى جوار ربها، وابتدأت رحلتي في عالمي الذي صنعته بنفسي، حتى أصبحت على ما أنا عليه الآن؛ نصَّاب فاشل أحتفظ بشهادة كلية الهندسة أعلى السرير الذي تتقلب عليه العاهرة.. فقط، لأخبرك كم كنت حريصا على أن أصل إلى هدفي أو حلمي الذي أخبرتك به، لكن بطريقتي..

(١٥)

عمر (٧)

من الغريب جدا أن يسكنك شخصٌ إلى هذا الحد! ذلك ما أردده دوما لنفسي كلما جاءت في بالي عايدة، وعلى الرغم من أنه لا أمل في لقائها أبدا؛ إلا أنني أضبط نفسي متلبسا ليس في مجرد التفكير بها، بل أني أفكر بجدية فيما سأرتديه.. أهو قميصي الأزرق، أم الأسود؟ أسيكون لقائي بها في الشتاء، أم سيكون في الصيف؟ أين سنلتقي؟ لطالما سرحت بخيالي في الأمر.. سوف أقابلها حتما على متن طائرة.. لا، لن يحدث ذلك.. أنا لم أجرب السفر خارج الوطن ولا مرة.. سأقابلها في لحظة تاريخية.. سأقف أمام منزلها القديم، وستكون هي أيضا تشعر بالحنين له نفسه.. سنلتقي في الوقت نفسه.. وسنتعرف إلى بعضنا بعضًا في لحظات.. لابد وأنها احتفظت ببعض من ملامحها وهى طفلة، لابد وأن أتعرف إليها بمجرد رؤيتها.. لكن ماذا بعد أن نعرف بعضنا بعضًا؟! هل سأعترف لها بكل شيء؟ هل سأخبرها أنني تركت عمر الصغير يوم تركتني هي في المكان نفسه؟! عمر لم يغادر معي من منزلهم، بقي هناك.. ربما يقف إلى الآن ينظر إلى الطائرات المضيئة كنجوم بعيدة، ويرفع يده بالإشارة ظنا منه أن عايدة ستعود في إحداها بالتأكيد.. هل سيقوى قلبي على أن أخبرها بكم شخص قمت بخداعه حتى الآن؟ ماذا لو سألتني ماذا تعمل الآن؟ ربما أكذب وأخبرها

أنني أصبحت مهندسا.. سأفتخر حتما بتحقيق حلمي الذي أخبرتها به ذات يوم.. سأكون كاذبا وغبيا ومنافقا، وستكون هي ساذجة، بل في منتهى السذاجة إن صدقتي ذلك.. أنا عمر يا عايدة.. الطفل الذي أذلته الدنيا فقرر الانتقام منها، قرر أن تأتيه الدنيا صاغرة ذلول.. ليس مهمًّا الطريقة، لكن الأهم الوصول إلى مبتغاي، تساءلت في داخلي؛ هل وصلت إلى ما كنت أحلم به حقًّا؟! وهل أتتني الدنيا صاغرة؟! في تلك اللحظة، تقلبت الفتاة التي ترقد في فراشي.. أصدر السرير المتهالك صوت صرير أخرجني من تلك الدوامة.. وأعطاني الإجابة المفيدة عن كل أسئلتي السابقة.. أنا سيء، في أسوأ حالاتي، لم تأتني الدنيا أبدا زاحفة أو راكبة.. وجود تلك الفتاة في غرفتي الآن يخبرني بذلك، فكرت في أنه من الأفضل ألا أتمنى رؤية عايدة مجددا، وتظل هي بداخل الجانب المضيء داخلي، في ركن من ذاكرتي الخائبة، تذكرت أنني تركت هاتفي على السرير، فذعرت لفكرة أن تكون تلك الفتاة تسببت في تعطيله أو كسر شاشته، ارتديت القميص الأسود، وذهبت إلى جانب السرير، فوجدت أن هاتفي سقط على الأرض، لكن لم يصبه أذى، لم يصبه أي أذى، لكنه أصبح معفرًا غير نظيف.. هكذا وجدتني أشبه ذلك الهاتف تماما في موضعه نفسه، لقد أزاحتني الدنيا إلى أسفل، وعفرتني بتراب الرذيلة والضياع.. من الأفضل ألا تراني عايدة.. من الأفضل أن أظل في موضعي نفسه بعيدا كل البعد عن أي شيء يذكرني بعمر القديم.. لقد عملت على محو صورتها طوال تلك السنوات بكل جدٍّ

وإخلاص، وكأنني كنت أنتقم منه لا أنتقم من الدنيا.. أمسكت هاتفي فأضاءت شاشته.. لدي العشرات من الحسابات على الفيس بوك.. سهلت علي التكنولوجيا كثيرًا في مجال عملي.. من خلال تلك الحسابات أمارس مهنتي المفضلة (النصب والاحتيال)، أضع إعلانات عن منازل وهمية، عن أراضي بأسعار مغرية.. وأصطاد فريستي بإتقان.. ويومًا بعد يوم؛ أطلب منهم حجزا أو عربونا لإتمام صفقة يرونها رابحة جدا، ثم أختفي.. لدي عديد من أرقام الهواتف، أتخلص منها بكل إتقان.. لا أترك أثرا ولا دليلا.. لا أضطر لمقابلة الضحايا -ربما من فرط ذكائي- أبعث لهم طلب صداقة من حساب آخر، يحمل مهنة أخرى وصورة أخرى، ولدي أيضا حسابا أو اثنين لاصطياد الفتيات.. هذه هي حياتي يا عايدة!! هل ستقبلين أصلا أن تنظري إلى وجهي؟! هل أجرؤ أنا في الأساس أن أخبرك كل هذا؟! لقد مات عمر الذي تعرفينه يوم ماتت أمه، ومتبقٍ منه مسخا يخشى النظر في عينيك.. لم أنتبه للفتاة التي فتحت عينيها لتجدني أقف بجوار السرير، وأمسك هاتفي..

ابتسمت بدلال:

"هل تأخذ لي صورة للذكرى؟"

كنت مشتتا مع آخر كلمة لها (صورة للذكرى)، أنا لا أمتلك أية صورة تجمعني بعايدة، ولا أيَّة صورة تجمعني بأبي، فقط مرة واحدة ذهبت فيها مع أمي إلى أستوديو للتصوير، كانت تحتاج صورا حديثة لعملها،

وهناك جذبتني إلى صدرها لأقف إلى جوارها، بينما يقف المصور، ويطلب منا الابتسام، كانت ابتسامتها حزينة، وابتسامتي مائعة، لكنها ظلت الصورة الوحيدة.. التي أمتلكها طوال السنين الماضية.. تركت الفتاة وفتحت باب غرفتي، لأقف بالقرب من السور القصير الذي يحيط بالبناية المتهالكة.. كنت أحتاج أن أتنفس، أن أشعر باتزان حقيقي.. لماذا تلح عليَّ ذاكرتي الآن لتذكر كل ما مضى، لم أكن راضيا عمَّا أفعله أو ما أعيشه، لكنني تعودت مثل كل كائن حي، يتعود ويمارس كل الطقوس المقدرة له، شيء ما بداخلي يصرخ ويَئِنُّ، وجدتني أشهق وكأن صدري قد ضاق بي، وهناك دمعة وحيدة ساخنة سقطت مني عنوة.. للحظة فكرت في الوقوف على السور القصير وإنهاء كل شيء، كل شيء؛ الحاضر والماضي، أقصد لم أكنْ يوما يخطر ببالي شيئا عن المستقبل، لكن قدماي لم تستجيبا لي، أخرجني من كل هذا – مرة أخرى– صوت الفتاة.. كانت قد ارتدت كل ثيابها وحملت حقيبتها:

"أنا ذاهبة يا هذا"

التفت إليها.. خرجت عيناها من محجريهما:

"أنتَ تبكي؟!"

اقتربت مني ووقفت بالقرب مني:

"ماذا بكَ؟!"

وجدتني أبكي وأشهق بشدة.. وجدتني أرمي بجسدي في أحضانها، كنت في الحقيقة لا أحضنها اشتياقا أو رغبة مني في شيء لديها.. فقط احتياج إلى أي صدر أرتمي فيه، أن أشعر أنني لست وحدي في هذا الوقت بالذات، شعرت أنني أريد أن أبوح، أن أتحدث عن عمر القديم، أن أخبر أي شخص أمرَ عايدة التي تركتني، لكنها غافلتني وسكنت جزءا من عقلي وقلبي.. لا أدري بمَ بُحت به تلك الليلة لتلك الفتاة.. كل ما أذكره أنني تحدثت عن كل شيء وأي شيء.. إنه البوح للغرباء للذين لن نراهم مرة أخرى، وكأنني قد ركبت قطارا لا أعرف وجهته، وجلست إلى فتاة لأحكي لها عن كل شيء وأي شيء.. كنت أعلم أنني بالنسبة لها مجرد زبون، وأنها -من المؤكد- قابلت كثيرين، ورأت منهم أكثر مما رأت مني، لكن الأمر -بالنسبة لي- كان لحظة صادقة تماما هاجمتني بشدة، هاجمت غبائي، وهاجمت سذاجتي في أن أفكر أن أنتقم من الحياة.. وجدتها تسندني إلى سريري، كنت منهكا كالعائد من معركة مهزوما ومقهورا، ولا يريد لأي صباح أن يأتي، يريد أن يتوقف الزمن والوقت، وتنتهي القصة والحكاية هنا، وينتهي عمر نفسه.. أغمضت عيني في سريري، ولم أشعر بأي شيء، ولا كم ساعة مرت، وأنا في سبات عميق، استيقظت على صوت رنين هاتفي، ووجدت المتصل ضحية أخرى كنت قد أوقعته في شباكي منذ يومين، وكان من المقرر أن أحدثه وأطلب منه تحويل بعض الأموال إلى حساب وهمي، أستطيع تغيير رقمه كل فترة، لكنني وجدت نفسي أرفض المكالمة، وأغلق الهاتف لأنزع بطاريته، ثم أقوم

بتكسير الخط الذي هاتفني عليه، كنت أفعل ذلك بإصرار وعزيمة ورغبة حقيقية، كنت أشعر بأن جزءا من عمر الصغير قدْ عاد إليَّ، حتى بدون أن تعود عايدة، ووجدتني أنظر إلى باب الغرفة المغلق، وأنا أسمع دقات خفيفة بطريقة معينة، أعرف صاحب تلك الدقات، كانت هذه هي العلامة التي أميز قدومه بها، إنه عامر الذي أتى ليحمل إليَّ جزءا آخر من عمر قديم كنت قد دفنته في وادٍ من الذكريات المؤلمة..

(١٦)

عايدة (٦)

عندما نطقت جدة راش أنني في خطر؛ احمر وجهها وتجمد للحظات، ثم وضعت يديها على عجلات مقعدها، وبدأت بتحريكها مغادرة إلى غرفتها.. كانت راش بعيدة عنا لكنها حاولت مساعدة جدتها في الطريق، وتحدثت إليها، لكن يبدو أن الجدة لم تستمع إليها، كل ما رأيته أنها أشاحت بوجهها بعيدا وأشارت بيدها، ثم دخلت غرفتها وأغلقت الباب بصوت قوي.. للحظات شعرت أن وجودي غير مرغوب فيه، وقد انشغل عقلي بما قالته الجدة، وماذا رأت في فنجاني مما أثار ريبتها وذعرها، وجعلها تذهب غاضبة بهذا الشكل، كل ما استطعت أن أفعله أني حملت هاتفي وحقيبتي وطلبت من راش المغادرة.. كانت محرجة جدا من تصرف جدتها، وحاولت أن تكون لطيفة وهي تحدثني عن تقلب مزاج الأشخاص طاعني السن، أخبرتني أن جدتها ذات سن كبير، وقد استغربت حينما أخبرتني أنها حضرت أحداث الحرب العالمية الثانية، وهي فتاة في ريعان شبابها، أي أنها الآن تقارب التسعين، أو قد تخطتها بالفعل، حاولت راش أن تجلس معي فترة؛ كي ترفع عني حرج التصرف غير المبرر من جدتها، لكنني أخبرتها إن كانت تريد أن تتحدث معي فعليها السير معي إلى أقرب بارك من الحي، وهو عبارة عن حديقة تتوسط منطقة السكن، حملت هاتفها هي الأخرى

ودقت الباب على جدتها:

"راشيل العجوز.. أيتها الجدة.. أنا ذاهبة مع عايدة إلى أول الحي.. اعتن بنفسك"

بالطبع لم تجدْ أيَّة إجابة.. وكانت الملحوظة التي علمتها للتو، أن الجدة تدعى راشيل أيضا..

سرنا أنا وراش إلى جوار بعضنا بعضا، كانت تحدثني وهي معلقة عينيها بالهاتف الخاص بها، سِمة فتيات العصر في كل مكان، كنت أنا أطلب منها أن تقص عليَّ قصة جدتها مع الحرب العالمية.. ضحكت بملء فمها لتقول:

"وهل لديك وقت لسماع حكايات الجدة العجوز؟!"

للحظة، سرحت في شكل جدتي أنا، أكان لي جدة وتوفيت قبل أن أراها أم ماذا؟ لا أذكر على الإطلاق أي شيء من ذلك.. ماذا لو كانت جدتي في صحبتنا كما هي جدة راش.. كانت ستنتظرني حتما لأمشط لها شعرها، وأقص عليها حكاياتي البسيطة.. كنت سأخبرها وأعتبره سرا، إنه ليس في حياتي أي شاب سوى عمر، كانت ستطمئنني عيناها أنني سألتقيه يوما، وأنها عايشت قصصا كثيرة انتهت باللقاء.. أشعر أنني لا أنتمي إلى بنات جيلي، على الرغم من أنني تعلمت وأكلت وارتديت الأشياء نفسها، لكن طباعي الخاصة دوما تنتمي للماضي الجميل، أشعر أنني فتاة من عصر الأفلام الأبيض والأسود التي كنت حريصة على أن أشاهدها في شرائط

الفيديو.. كانت أمي حريصة على أن تخصص لها حقيبة كاملة يوم سفرنا..

نظرت إليَّ راش لتداعبني:

"يبدو أن عقلك مشغول بأمر ما"

"مشكلتي صديقتي أني لست مشغولة أبدا، مشكلتي أنني أشعر أنني فارغة من الداخل"

غمزت راش بعينيها لتقول:

"تريدين أن تخبريني أنه ليس ثمة طالب طب معكِ في الصف، أو بروفيسور في المستشفى، أو حتى زبون يطلب الورد ثم يعيد إهداءه لك"

"أبدا" قلتها وقد احمر وجهي..

سحبتني راش من يدي، وجلسنا على مقعد مطلي بالأسود يتوسط الحديقة، بينما نرى المارة والمساكن المحيطة بنا من كل اتجاه ثم نظرت إليَّ:

"اعطني خمس دقائق.. سأنهي معاملة عبر الهاتف ونتحدث في كل شيء"

"سترسلين بريدا؟!"

ضحكت لتقول:

"أنت قديمة جدا جدا.. لقد مضى عهد البريد، الآن هناك فيسبوك وتوتير وإنستجرام، وتطبيقات عديدة تتيح لك التواصل مع أي شخص كان ومن أي بلد تريدين"

لقد سمعت بالفعل عن كل تلك التطبيقات، لكن لم أطق تحميلها على هاتفي، لو يعلم عمر أنني لا أعِ أمور التكنولوجيا كلها ولا أحبها، كما أن علاقتي بالفتيات لا تزيد عن مبادلة أرقام الهواتف الشخصية أو المنزلية.. فكرت للحظة في عمر، أظنه موجود على تلك التطبيقات، إذا أصبح مهندسا كما كان يتمنى.. أنهت راش معاملتها ثم رفعت رأسها:

"الآن يا فتاتي الساذجة، سوف أقص عليك أمر جدتي"

"حقًّا!!ا ظننتك نسيتِ الأمر"

"لا تقاطعيني من فضلك، هذه أول مرة أقصُّ على فتاة قصة، ربما لو كان لديك ماسنجر لكتبتها لك بسهولة"

ابتسمت وقلت:

"تستطيعين الكتابة ولا تقدرين الحديث!!"

"هكذا فعلت بنا التكنولوجيا، نحن نقول كل شيء وأي شيء عندما نكون خلف الشاشات، ثمة طاقة أو قوة تجعلنا أقلَّ خجلا، أقل خوفا، على الرغم من أنها تفقدني شيئا مهما، شيء لا يقابله شيء في كل هذا، تفقدنا الشعور يا عايدة.."

كانت محقة، وربما كان هو أهم أسباب ابتعادي عن كل هذا، ربما لأنني أرى كل تلك التطبيقات، ما هي إلا مرآة زائفة لشخصيات نصنعها نحن بأيدينا، إذ لا نكون حقيقيين ونحن نتجمل أو ننافق أو ندَّعي أمورا عديدة ليست فينا.. تحدثت راش:

"كانت جدتي تدعى راشيل أبانوا داود.. وكان جدها هو داود باشا.. وقد سمي شارع باسمه في حيٍّ قديم بالقاهرة.. كانت فتاة منطلقة متعلمة، حتى إنها كانت تتقن عددا من اللغات على سبيل المثال؛ اليونانية والتركية والعبرية والإنجليزية وحتى الإيطالية.. كان والدها من مشاهير المجتمع حين ذاك.. حتى قامت الحرب العالمية الثانية.. وبدأت الأنباء تأتي إلى مصر بأن قوات هتلر قد بدأت السيطرة على العالم.. سقطت عدَّة عواصم أوروبية، وكانت الأخبار التي تأتي مخيفة بالنسبة لليهود عامة وخاصة الصهاينة.. لأن هتلر توعد كل اليهود.. وبدأ شنَّ حملة لتخليص العالم منهم، وبدأت قواته تحارب في كل مكان للقضاء على كل ما هو يهودي، حتى إنه طارد الفارين من أوروبا إلى بلاد أخرى، بينما اقتربت قواته بشدة من الحدود الغربية لمصر من جهة ليبيا، كان على والد جدتي أن يفكر في الهرب مثل باقي اليهود.. فقد باع معظم اليهود أملاكهم في كل مكان في مصر، وكان معظمهم أصحاب تجارة ونفوذ، منهم صيداوي وعدس وغيرهم.. بدأ أبوها تصفية كل أملاكه في القاهرة، بينما المنطقة التي كان يسكنها تسمى المعادي، كانت منطقة نائية بالقرب من حلوان، وكان أهلها يستخدمون المعديات للانتقال عبر النيل.. وكانت معظم الشوارع بأسماء قاطنيها، مثل اللورد الإنجليزي الذي كان يحكم القاهرة وقتها، ولأن المنطقة غير مأهولة بالسكان.. أرسلت بريطانيا كتيبتين من الجيش البريطاني، لتعسكر في المنطقة إذعانا لإرسالهم إلى الحدود الغربية لمواجهة

جيش هتلر، كان من بين هؤلاء الجنود ضابط يدعى السير جون، كان شابا جميلا ذا عيون زرقاء وقوام ممشوق، ونظرًا لوجودهم بالمنطقة لعدة أيام، دعا والد جدتي الضباط إلى حديقة منزله، وفي تلك اللحظة، تعرفت جدتي إلى جون، وبدأت بينهم اللقاءات المتعددة خارج الإطار العائلي، جدتي تحكي أنها عشقته منذ النظرة الأولى، وأنها كانت في قمة سعادتها عندما علمت أنه مسيحي سبتي، وهؤلاء قريبون جدا من عقيدتها اليهودية.. مرت الأيام التي بينهما جميلة، ذكرياتها معه كانت أشبه بالأفلام.. يتحدث إليها في الهاتف، في منتصف الليل.. يمر من أمام المنزل ليلا، ويلقي الورد على شرفتها.. حتى جاءت لحظة الفراق.. انتهى أمر هتلر واستعاد الحلفاء وضعهم العسكري، واستتب الأمر لهم، وأتت الأوامر للكتيبتين بمغادرة المعادي.. فما كان من الأهالي هناك إلا إقامة حفل لتوديعهم، ووضع نصب تذكاريٍّ يخلد مرورهم من تلك الأرض.. على الجانب الآخر، كانت جدتي تبكي رحيل جون وهي ممسكة ببقايا الورد الذي كان يرميه إلى شرفتها، مما جعله يعتزم على أمر التقدم لها، وبالفعل اخذ موعدا من والدها في أثناء احتفال الأهالي بهم، وفي الموعد حضر جون إلى المنزل، كانت جدتي في منتهى السعادة.. لكن سعادتها أبدا لم تكتمل، فقد رفض الوالد الأمر مستندا إلى أنه من الأثرياء، وجون كان شابا فقيرا في مبتدأ حياته، غادر جون بكل أي العالم أجمع.. لكنه بدأ إرسال الرسائل إلى جدتي لمدة عامين متتاليين، حتى أتى ذات مساء إلى المنزل نفسه، ولا تعلم هي كيف وافق

أبوها على تلك الزيجة التي كان يرفضها، ربما هي تعلم، لكنها أبدا لم تخبر أحدا بالسر.. تزوجته ثم مكثت معه في منزل والدها، حتى حدث حريق هائل بالمنزل، لم ينجُ منه أحدٌ سواها، وقد كانت في حملها الأول، الذي مني بعد ذلك بأبي.. ابنها، لم تقصَّ علينا أبدا الجدة أمر الحريق، ولا ما كان سبب ذلك، إنها قصة أسطورية تصلح لتكون فيلما مثل تيتانيك."

"تيتانيك؟!"

"أوه، لا يا عايدة.. لا تخبريني أنك لا تعرفين الفيلم.. من أي كوكب هبطتي علينا أيتها الفتاة؟!!"

"لا بالتأكيد.. أعرفه"، قلتها وأنا أعلم تمام المعرفة أنها المرة الأولى التي أسمع فيها اسم ذلك الفيلم.

"هل تعرفين الأغنية الخاصة به؟!"

"أيَّة أغنية؟!"

بدأت راش الغناء.. وبدأت أردد خلفها

Every night in my dreams

I see you, I feel you

That is how I know you go on

Far across the distance

And spaces between us

You have come to show you go on

Near, far, wherever you are

I believe that the heart does go on

Once more you open the door

And you're here in my heart

And my heart will go on and on

Love can touch us one time

And last for a lifetime

And never let go 'til we're gone

Love was when I loved you

One true time I'd hold to

In my life we'll always go on

Near, far, wherever you are

I believe that the heart does go on

Once more…

ترجمة الأغنية

كل ليلة في أحلامي

أنا أراك، أنا أشعر بك

هذه هي الطريقة التي أعرفك أن تستمر بها

بعيدًا عبر المسافات

والمسافات بيننا

لقد جئت لتظهر أنك تستمر

قريب أم بعيد أينما تكون

وأعتقد أن القلب لا يزال مستمرا

مرة أخرى تفتح الباب

وأنت هنا في قلبي

وقلبي سوف يستمر..

الحب قد يزورنا ذات مرة

ويستمر لمدى الحياة

ولن يتركك أبدا

الحب كان حين أحببتك

مرة واحدة حقيقية كنت أمسكها

في حياتي، سنستمر دائما

قريب أم بعيد أينما تكون

وأعتقد أن القلب لا يزال مستمرا

مرة أخرى...

شعرت أن تلك الأغنية تليق أكثر بكل ذكرياتي وذكرياتي مع عمر، أحببتها بالفعل.. وكان أول شيء فعلته عند عودتي أنني قمت بتحميلها من جوجل.. ووضعت سماعات أذني، وبدأت أستمع لها مرات لا أذكر عددها، لم يجعلني شيءٌ أوقفها سوى الفكرة التي طرأت على عقلي في الليلة نفسها.. كانت الفكرة هي البحث عن شارع بمنطقة المعادي يدعى "أبان داود"، شهقت للحظة عندما علمت أن الشوارع كلها في تلك المنطقة قد تغيرت لأرقام، وأنه شارع (٧) بحي المعادي.. كان عليَّ أن أسأل أمي عن الأمر..

(١٧)

راشيل (١)

لا أدري ما الذي حدث لي عندما نظرت في قدح الفتاة المصرية التي تدعى عايدة، لقد رأيته، أقصد رأيت شيئا أعرفه تمام المعرفة، شيئا من المفترض أنه يقابل الإنسان مرة واحدة في عمره، كان هو.. مرسوم ببقايا القهوة يمسك بعايدة من عنقها ويضع أسنانه وأنيابه فيها.. هو نفسه الشر الكامن الذي تركناه في منزلنا القديم بالمعادي، إنه الشر الذي جلبه جون زوجي معه من صقلية.. لم أشعر بنفسي سوى وأنا في غرفتي كنت مرتبكة منفعلة، حتى إنني لم أنطق بكلمة عندما أخبرتني راش الصغيرة أمر ذهابها إلى الحديقة القريبة مع عايدة.. جلست على مقعدي وأمام مرآتي التي أضع فيها صورا قديمة قدم ما دار في ذهني، كانت الصورة الوحيدة التي نجت معي من شر ذلك الذي أخشاه، كانت تجمع جون بأبي (أبانوا داؤود)، وكان جون يحمل لفافة تاريخية، وقد طواها أسفل إبطه لألتقط لهما الصورة..

تعرفت إلى جون في أثناء ما كان يمر بجنوده من الشارع الذي نسكن فيه والذي يُسمى -وقتها- باسم والدي، كان وقتها والدي حريصا على أن نقف جميعا في الشرفة لنحيي الجنود والضباط التابعين للجيش البريطاني.. لنشعر بشيء من الأمان، الأمان الذي غاب في لحظات، بسبب ما كنا نسمعه

من أنباء تخص تنكيل هتلر وجنوده بكل ما هو يهودي.. كنت أقف في الشرفة إلى جوار أمي أرتدي منامتي، وكنا نشير جميعا بأيدينا إلى الجنود وهم يصيحون بأصوات عالية بالنشيد الوطني البريطاني، كان جون يقودهم.. وللحظة، شعرت أنه يعطيهم أوامره دوما بالثبات لفترة طويلة أمام منزلنا، كان يحدثهم وقد لفت رقبته للأعلى صوب مكاني، كان مبتسما، نشيطا، وجميلا أيضا..

في المساء كنت أجلس في شرفتي عندما شعرت بشيء اصطدم ببابها وسقط على الأرض أمامي، كانت وردة ندية وجميلة قطفت للتو، ملفوفة بخطاب من بضع كلمات: "أحبك وأحب عينيك، كلما نظرت إليهما من بعيد يدعواننى إلى العيش برفقتهما لآخر لحظات من حياتي.. المتيم بك جون". كاد قلبي ينخلع من صدري وأنا أكرر كلماته البسيطة التي احتوى عليها الخطاب، وبدأت أقف أمام المرآة، كأيّة فتاة بدأت غمار قصة حب ملتهبة، كنت أستمع إلى الأغنيات في الراديو الصغير، أو عن طريق الاسطوانات التي كان يعشقها أبي ويداوم على سماعها كل مساء.. وبدأت أفكر في إرسال رد إليه.. "إلى المتيم بي، إلى من عشق عيوني من النظرة الأولى"، قالها لي جون بعد ذلك، لقد اخترقت سهام نظراتك قلبي.. كنت أبتسم وأنا أعلم أن من اخترقته السهام كان قلبي أنا..

مرت الأيام، وبدأ جون مراسلتي كل ليلة بكلمات العشق، حتى بات لا يصبر على فراقي، أرسل إليَّ في المساء وردة جديدة ملفوفة بورقة صغيرة، بها موعد ومكان يمكننا أن نتقابل فيه، وفي الصباح عندما كان يمر بجنوده، انتهزت فرصة انشغال أبي والعائلة، ورميت له بورقة كنت قد كتبت ما فيها طوال الليل، وكلما انهيته مزقتها، وفي النهاية جاءت مختصرة جدا:

"إن كنت تحبني، فأنا أيضا أ....". وتركت المكان فارغا، لم أقوَ يومها على كتابتها، لكنها على كل حال وصلته.. فتحها في لهفة وابتسم، ثم أمسك البارية الخاص به وقذف به إلى الشرفة.. أمسكته بينما مضى هو بجنوده بعيدا.. ظللت أشتمُّ رائحته فيه، حتى أتى الموعد المحدد للقائه، وبالفعل وجدتني مهمومة باختيار ما سأرتديه!! وهل سأكون رائعة الجمال بذلك، أو بتلك؟ كان اللقاء الأول بجون يشبه المرة الأولى للذهاب إلى السينما.. إن كل شيء في مرته الأولى يكون على أحسن ما يكون، يظل عالقا في الخاطر بكل تفاصيله.. ما زلت أذكر لون الجوارب التي كان يرتديها، وأذكر الحزام ذا الطوق الفضي حول خصره.. تحدثنا بعيوننا أولا، ثم وجدته يمد يده لي، لم أتردد، فالحب الذي سكن عينيه أخبرني أنه أبدا لن يفلت تلك اليد أبدا..

مرت الأيام، وتواصلت الأنباء عن هزائم متتالية لقوات هتلر، كنا جميعا سعداء، كنا في حالة بهجة لزوال الكابوس اللعين، وكنت أنا لدي سعادتي الخاصة؛ ففي اليوم نفسه الذي هزمت فيه القوات بقيادة رومل في

صحراء مصر الغربية، أخبرني جون أنه سيتحدث مع والدي في أمرنا.. انتظرت المساء وأنا مبتهجة، حتى أعلن الخادم عن زيارة السير جون إلى منزلنا.. وقفتُ خلف الباب البعيد أترقبه وهو يدخل من البهو الكبير، وكم كان أنيقا يومها! كانت الفرحة تطل من كل شيء يحيط به.. استقبله أبي بحفاوة واحتضنه وكأنه هو من أنقذ العائلة، أو تسبب في هزيمة هتلر.. أمرت المخدومين بعدم الدخول إليهما منعا لإزعاجهما، وتسللت لأقف بجوار باب مكتب أبي.. تنحنح جون ليبدأ الحديث عنا، أعلنها مدوية لأبي:

"سيدي، تعلم أننا وجب علينا المغادرة، وأريد أن أطلب منك شيئا قبل سفري"

"بكل سرور.. سيد جون"

"في الحقيقة.. أنا أريد.. أنا...."

"تحدث.. سيد جون"

كنت أشعر بتعرق جبهة جون أمام أبي..

"أنا أريد الزواج براشيل ابنتك وأنا.."

ضرب أبي بيديه المكتب:

"اسمع سيد جون!! أنا أحترمك وأقدرك، لكن هذا لا يعطيك الحق في أن تتمادى معي، وتطلب أمورا تعلم أنك لن تنالها.. ولا أظن أن رؤسائك سوف يسعدهم أن أخبرهم أنك تماديت معي في الحديث"

"كل الأمر سيدي.. أنني... أقصد أنا وهي.."

"لا تنس موضعك ومع من تتحدث.. أنت مجرد جندي في جيش وطني.. أما أنا ومن على شاكلتي، من يؤمِّن لكم الأموال، أموال الأسلحة والحروب والرواتب وكل شيء.. ولا يصح لك أبدا أن تطلب شيئا لا تقدر على ثمنه.. أنت جندي؛ ولا تمتلك أي شيء ولو جزءًا ضئيلًا مما سيكون من نصيب راشيل في يوم من الأيام"

" لكن سيدي أنا أحبها وهي..."

"هي مازالت صغيرة، وأنت لديك سفر بعد أيام.. انتهت المقابلة، وإن كنت أتمنى لك مستقبلا جميلا، لكن ليس هنا"

انتفض جون ليقف على قدميه، وعندما وصل إلى باب المكتب، التفت إلى أبي..

"يوما ما، سأطلبها وأنت ستوافق على ذلك"

"أنت تحتاج لكنز، كي أستطيع أن أراك يوما تجلس في الموضع نفسه الذي كنت فيه منذ قليل"

مد جون ذراعه ليفتح الباب ويخرج مسرعا من البهو، دون حتى أن يلتفت للمكان الذي كنت مختبئة فيه..

ظللت طوال الليل أبكي وأفكر، لابد أن أقابله، حتى لو كان لقائي به هو الأخير، لكن لابد من أن أفعل ذلك في الصباح.. حاولت الخروج لكن أبي منعني من فعل ذلك، مما اضطرني للخروج من الباب الخلفي للمنزل، وذهبت صوب المكان الذي يعسكر به جون ورفاقه

وتحدثت إليه باكية، كنت أرغب في أن يأخذني معه، حتى لو كان ذلك أمرا صعبا بالنسبة عليه وعليَّ، لكنه رفض الأمر بشدة، ووضع يده في يدي وأقسم أنه سيعود لأجلي.. لكنه طلب مني أن أقسم له أن أنتظره، وقد فعلت على الرغم من كل الضغوط التي مارسها أبي عليَّ، انتظرته ولم تنقطع خطاباته لي طوال فترة ابتعاده، كانت كلماته هي الوقود الذي كان يزيد اشتعال تعلقي وحبي له..

أتى اليوم الذي عاد فيه جون، لكنه عاد بوجه وهيئة وعقل ومشاعر غير تلك التي ذهب بها، لقد شعرت بتغيره من أول نظرة له، هذا التغيير أصابنا جميعًا بما فيهم أبي، الذي أخبرني أن السيد جون سيحضر الليلة إلى المنزل وعليَّ أن أكون مهيَّئة، لأنه سيطلبني بشكل رسمي منه، كان وجه أبي مختلفا، كان يخبرني بذلك وهو في منتهى السعادة، عندما حضر جون في المساء، احتضنه أبي ووقف إلى جواره، بل وطلب مني التقاط صورة لهما وهما إلى جوار بعضهما، بينما لم ألتفت إلى حرص جون على وضع اللفافة القديمة تحت إبطه في أثناء التصوير..

(١٨)
راشيل (٢)

لم تمضِ أيام قليلة منذ وصول جون وموافقة أبي، حتى أخبرني جون أن موعد الزواج سيكون عقب عيد الغفران.. ما زلت أذكر التاريخ وقتها، كان الموعد هو منتصف تشرين، وهو الشهر الذي تبدأ فيه السنة اليهودية، وتحديدا يوم العاشر من الشهر نفسه، أي سيفصلني عن الزواج أقل من عشرة أيام، من ضمنهم أيام التوبة العشرة، وهي الأيام التي تنص عليها شريعة سيدنا موسى، ويمنع فيها كل شيء من مظاهر الصخب أو التلذذ بالحياة.. ولما أتى اليوم العاشر من تشرين، وهو اليوم الذي يسبق يوم عيد (كجبور) أو كما نسميه نحن (روش هارشناه)، كنا مستعدين تماما للذهاب إلى المعبد اليهودي بمنطقة رمسيس كي نحضر (صلاة النعيلة)، وهي صلاة نقوم بها في آخر يوم وآخر ساعة وهي وقت مستجاب به الدعوة.. لكن المفاجأة التي حدثت لم تكن أبدا متوقعة، لقد حضر الحاخام الأكبر بنفسه بناءً على دعوة أبي لإقامة الصلاة في حديقة منزلنا، وبدأت العائلات اليهودية الكبيرة والمشهورة التوافد إلى المنزل، وكأنه تحول في لحظة إلى قدس الأقداس، أو حائط المبكى في أورشليم العربية.. كان لابد أن تبدأ الصلاة قبل انقضاء اليوم، وتحديدا في آخر ساعة من اليوم، والتفوا جميعا في هيئة مربع ناقص ضلعا، هذا الضلع خصص للحاخام ومساعديه.. وبدأوا جميعًا

يلتفون بالأوشحة ذات النجوم السداسية، وبدأ الحاخام يتلو الصلوات وجميعنا نردد خلفه..

"إلهي يا عظيم الأفاعي/ اعف عنا في صلاة النعيلة/ قلة قليلة تقبلها في رحابك/ يتطلعون إلى ثوابك/ يخشعون في صلاة النعيلة/ يقرون بخطاياهم/ امح آثامهم/ واشملهم بمغفرتك في ساعة استجابة/ واسترهم واغسلهم من الذنوب/ واختم لهم بالرحمة والمغفرة.. ميكائيل يا حامي إسرائيل، الياهو، وجبريل/ بشرونا بالخلاص في صلاة النعيلة"

كان علينا أن نردد التلاوات أكثر من عشر مرات، وكل مرة ننطقها بعزيمة وقوة ورغبة منا في تحقيق ما نتمنى، أذكر أنني وضعت فمي الصغير داخل الوشاح وبدأت أهمس إلى الله، بأن يكون لي جون، وبدأت أقولها وسط التلاوة.. "يا رب جون"، كنت أشعر بقلق بالغ حيال الأمر كله، على الرغم من أن أبي قد غير رأيه، لكن لم أكنْ أشعر بالأمان، حتى بعد تحديد موعد الزفاف، ظل القلق يساورني، وحتى وأنا أقف في ساعة الإجابة، لم يخرج الشك من قلبي، غير أنني سمعت صوت أحدهم وقف في نهاية المربع الذي به الرجال، وكان يرتدي الطاقية اليهودية على رأسه، ويردد بصوت عالٍ خلف الحاخام، كان مميزا لهم.. وقد لاحت في عيونهم آيات الاستغراب، ربما لأنهم جميعا أو معظمهم من سكان المنطقة، وقد عرفوه في أثناء ما كان يقود الجيش البريطاني هنا، أو ربما لأنه لا ينتمي لأيّة طائفة من طوائف اليهود، وهذه الصلاة خاصة جدا بالنسبة لهم، ابتسم لي،

والتفت الحاخام معلنا انتهاء الصلاة، أسرع جون ليلتفت هو الآخر لي، ووجدته يرتمي في أحضاني وسط شهقاتهم جميعا.. طلب منا الحاخام التقدم سويًّا إليه، ووضعت يدي في يد جون أمامهم، بالفعل كنت أفعلها من قبل في أثناء مقابلاتنا السرية، لكن هنا في منزلنا، وأمامهم جميعًا وبحضور الحاخام، كان الأمر أكثر إمتاعا.. ولكن بقي في قلبي الشك من عدم اكتمال الأمر، ربما لأن الأيام السابقة كانت أيام الصيام واحتجبت عن الظهور، وانشغل جون في إعداد أمور تخصه، ولم تأتِ فرصة ليشرح لي فيها كيف استطاع تغيير رأي أبي بهذا الشكل!!

عندما اقتربنا من الحاخام، أجلسنا على ركبتينا إلى الأرض، وبدأ يدور حولنا بصلاة خاصة، بينما يحمل المبخرة كانت الأدخنة المتصاعدة منها لها أثر الخدر، فشعرت باستسلام كامل وتام، ولحظة هدوء نفسي لم يسبق لي أن عشتها.. ربما ليست الصلاة هي السبب، ربما هو وجود جون إلى جواري، وأمامهم جميعًا.. بعدما أتم الحاخام الطقوس، دعي أبي جميع الحضور إلى مأدبة طعام.. كانوا جميعا متشوقون للأطعمة التي كنا قد حرمنا منها طوال عشرة أيام، وانغمس غير المتدينين في احتساء الخمر، بينما كان لدي فرصة لأراقص جون بالقرب من شرفة البهو.. وضع يده أسفل خصري، ووضعت يدي على كتفه، وبدأنا نرقص بهدوء، جعلني أضع رأسي على صدره وهمس في أذني "أحبك راشيل"

"وأنا أيضا جون"

قبلني بعفوية وبساطة، بينما رأيت بطرف عيني أبي وهو ينسحب ومعه الحاخام وبعض من مساعديه إلى داخل غرفة مكتبه، بينما كان جون يدور بي، ويشير له بعلامة النصر وهو يغلق الباب.. كنت متحيرة في الأمر ولم أستطع أن أحدث جون فيه، لأن اللحظة وقتها كانت عاطفية بامتياز.. لقد غاب أبي بداخل مكتبه، وانشغلت أمي بواجبات الضيافة، وتحرك جون بي إلى الشرفة، حيث الهواء العليل والموسيقى التي كان صوتها هادئًا.. كانت فرصته ليغمرني بمزيد من القبل.. لم يخرجنا سويًّا من لحظات العشق تلك، سوى صوت الخادم وهو يتنحنح على باب الشرفة ليقول:

"اعتذاري سيد جون، لكن سيدي يطلبك حالا إلى المكتب"

وقع قلبي بين أقدامي، ربما استاء أبي من أفعال العشاق التي كنا نقوم بها، مما دفعه للإرسال إلى جون كي يوبخه، ولابد أنه سيطالني جزء من توبيخه أيضا.. وجدت أبي يخرج من باب المكتب بحزم وقد احمر وجهه، وهذه علامة تنذر بغضب عارم قادم لا محالة، وقف في منتصف البهو، ورمق جون بعينيه وهو يسير صوب باب المكتب الذي كان مازال الحاخام ومساعديه بداخله، بينما تحدث والدي للجمع الغفير أمامه، بعدما أوقف الموسيقى التي كانت تنبعث منها الأغنية اليهودية الخالدة.. "هافانا هاتفينا هفانا"

"أيها السادة.. أشكركم على تشريفكم إياي بالحضور:"

"روشا هارشناه"، كانت كلمته تعني (عيد كجبور أو غفران سعيد)، وكانت بمثابة طلب مغادرة مهذب منهم جميعًا، وبالفعل في لحظات، حمل الرجال معاطفهم، والنساء معلقاتهم وبدأوا الانصراف.. أغلق أبي الباب خلفهم ونظر إليَّ قائلا:

" راشيل، اصعدي إلى غرفتك مع أمك".

والتفت إلى الخدم الذين تراصوا قرب الباب:

"يمكنكم الانصراف أيضا".

وساروا جميعا صوب الباب الخلفي في نهاية البهو، وصعدت أمي تسبقني إلى أعلى.. كان القلق قد وصل بي حدًّا مؤسفا وخطيرا، لم يدع لي خيارا سوى أن أمارس هوايتي القديمة، التصنت من الأبواب، ووقفت في مكان اختبائي الأول نفسه الذي كنت فيه، يوم زيارة جون الأولى، ودعوت الله بكل جوارحي ألا تكون النتيجة واحدة في الحالتين، كنت أخشى على قلبينا أن يتحطما أو ينكسرا انكسارا لا رجعة فيه.. بدأت أنصت للحديث الذي دار بالداخل.. كان صوت الحاخام:

"الأمر الذي عزمت أن تقوم به أيها السيد -أنت ونسيبك هذا- خطير، وربما لو لم تستطع أن تفعل كل ما جاء في نص تلك المخطوطة ستعاني ويلات مريرة!"

"كل ما نريده يا سيدي الحاخام هو أن تبارك لنا عملنا، وأن تساعدنا في فك رموز وطلاسم تلك المخطوطة الغريبة"

ارتفع صوت الحاخام:

"مستحيل أن نتشارك معكما في أمر مثل ذلك.. إن الدين يمنع التحالف مع أي شر، حتى لو كان في سبيل الحصول على كنز أو أي شيء، ثم من أدراكم أن الوثيقة تخص موسي بن ميمون فعلا وأنها ليست مدسوسة من أي دجال؟!"

ظهر صوت جون:

"أنا أضمن لك صحتها، لقدْ عثرت عليها بنفسي مع بعض متعلقات تخصه في صقلية، والمخطوطة واضحة تماما، هي تخبرنا أن كنزه مدفون هنا في مصر.. وأنه جنَّد حارسًا من عتاة الجن عليها، وكتب الرموز التي تحرر الحارس وتعطي لمن يحرره الكنز."

كنت أعرف ابن ميمون هذا الذي يتحدثون عنه.. ففي عقيدتنا اليهودية الخالصة تقول الكتب:

"لم يأت مثل موسى بن عمران، سوى موسي بن ميمون"

(١٩)
راشيل (٣)

كنت أعلم من هو موسى بن ميمون.. لا يوجد يهودي في العالم لا يعرفه، إنه (ربَّى مشه ابن ميمون) أي الحاخام موشيه بن ميمون، ويرمز له عند الغرب كله باسم (ميمون ديس)، أما العرب فيعرفون الرجل باسم الرئيس موسى.. أعلم أنه الأوحد صاحب المؤلفات باللغة العبرانية، وقد كان واجبا علينا ونحن أطفال في المعبد اليهودي بالعباسية، والذي كان يحمل اسم معبد موسى بن ميمون، أي أنه يحمل اسمه، أن ندرس كتابه الرائع في الديانة اليهودية، والذي كان بعنوان (مشناه توراه)، أعلم أن الرجل يلقى احتراما واسعا عند كل أصحاب الأديان، حتى الفرس أنفسهم وبلاد إيران، فالرجل كان علامة عصره، وتقول الحكايات أنه ولد بمدينة قرطبة بالأندلس، ثم هرب من بطش دولة الموحدين بالأندلس إلى المغرب ومدينة فاس بالتحديد، حيث ينسب لعائلة هناك تدعى عائلة الباز، وقد سافر معظم أفرادها إلى القاهرة وفلسطين واليمن، إلا أن أسرة موسى أخذته إلى القاهرة، وهناك استطاع أن يجد له مكانا بالقرب من السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي، وقتما كان الأخير وزيرا في عهد الفاطميين، حيث إن موسى بن ميمون كان الطبيب الخاص للسلطان، كما أنه اشتغل في الفلك، وتتلمذ على يديه علماء كثيرين، يكن الغرب كله لابن ميمون

أفضالا في نقل أفكار اليهود إلى العالم أجمع عبر كتاباته العبرانية، ودراسته التي كانت أشبه بدراسات مجامع الأديان الآن.. كان يرى موسى بن ميمون أن الأديان كلها تستطيع الاتفاق على عشرة أشياء، وقد سردها في كتابه (دلالة الحائرين)، كما أنه تتلمذ على يد ابن رشد، ولكن ليس بشكل مباشر، وقد مات بالقاهرة في منطقة الفسطاط بالقرب من المدرسة اليهودية التي كان أستاذا بها..

لكل هذا أمعنت التصنت عندما سمعت اسمه على لسان الحاخام الأكبر.. انفعل والدى بشدة، وتحدث بشكل غير لائق أمام الحاخام، مما دفع الأخير للانسحاب مع رجاله من الغرفة إلى الخارج.. ولم يحاول أبي استعطافهم أو حتى توصيلهم إلى الخارج، فقط انتظر خروج آخر واحد منهم، وأغلق الباب خلفهم ثم عاد إلى جون:

"كنت أتوقع رفض الحاخام الأمر" قالها أبي بأي بالغ.

"لكنني أظن أننا.. أقصد أنا وأنت سيدي ماضيين في طريقنا"

"بالطبع يا جون، أنت تعلم معنى أن يكون هنالك كنز لم يمسسه بشر، ينسب إلى موشية بن ميمون.. لكن كيف؟ لابد من وجود حاخام.. أنا رجل أعمال، وأنت جندي لا نفقه شيئًا في علم الرموز هذا"

"يمكننا العمل على مفاوضة أحد مساعدي الحاخام دون أن يدري، أو يمكننا الخلاص منه للأبد"

وضعت يدي على فمي، غير معقول أن يكون هذا هو جون الذي أحببته!! إنه يدبر لقتل الحاخام.. ضرب أبي المكتب بقبضته، وانتفض قلبي مع ضربته، كنت أتوقع أن ينهر جون.. أن يغاضبه لمجرد التفكير في الأمر.. لكنه انتصب واقفا إلى الجانب الذي يكمن فيه دولاب من ضلفتين.. فكرت للحظة أنه ربما سيخرج مسدسه ويفرغه كله في صدر جون.. لكن لحظات صمت ثم صوت ارتجاج كأسين ببعضهما، وصوت أبي المرتفع يقول:

"إذن، لنشرب نخب الخلاص من الحاخام الأكبر"

نظر أبي شذرا إلى جون ليقول له "مشيرا بكف يده"

"هل تعلم يا جون أنني أخشى ما أخشاه أن تكون تلك الوثيقة مزورة أو غير أصلية"

"أنا أضمن لك ذلك.. سيدى لقد عثرت عليها في أثناء وجودي في صقلية.. حيث انضمت إلى كتيبتنا كتيبة من جنود أبان، كانت قادمة من فاس بالمغرب، وتعرفت فيها إلى إدوارد، الجندي الذي أخبرتك أنه كان حارسا على بيت موسي بن ميمون هناك، وقد قص عليَّ أمر الأشياء الغريبة التي تحدث هناك في المنزل، مما دفعني إلى الذهاب هناك واستيضاح الأمر بنفسي، وعندما هممت بدخول المنزل، شعرت بثقل أقدامي كأنها علقت بها أحجار من صخر، تحاملت على نفسي لأدخل إلى منتصف المنزل، وهناك شعرت بدوار شديد، لأسقط على الأرض وتنكسر دائرة تحيط بي كانت مرسومة على الأرض الخشبية، وعندما سقطت لأسفل رحت في غيبوبة

طويلة.. لأرى مكانا يشبه المنزل نفسه، به سرداب سريّ لأسفل، وبه شيء داخل خزانة خشبية مزخرفة.. كان المكان كله مظلمًا، لكن شيئا ما يضيء في أحد جوانبه، يضيء ويومض كشمعة صغيرة ذهبت باتجاهه، لأجد الحائط القريب قد ارتسم عليه وجه مخيف ونطق بصوت ضخم:

"اطلق الحارس من مصر يكن لك الكنز"

تردد الصوت في أذني، لا، ستفيق وأجدني في منتصف المنزل والدائرة التي كسرت وسقطت منها كانت مكتملة، وليس بها أي أثر لأي شيء، بحثت بعيني عن شيء كنت قد رأيته في غفوتي.. علامة تشير إلى مكان السرداب، وهرولت لأسفل لآخذ الصندوق الخشبي، وأنا أخشى أن أرى الوجه نفسه الذي ظهر في الحقيقة، وعندما فتحته وجدت تلك الوثيقة.. ولا أظن أن يكون أحدا استطاع وضعها في هذا السرداب غير موسى بن ميمون بنفسه.

"لديَّ حدسي الخاص.. وأنا أميل إلى أنها حقيقية، إذن دبر أمر الحاخام.. فعلينا الإسراع بإنهاء الأمر في سرية تامة"

"أرى أن ننهي أمر زواجي براشيل أولا"

"تقصد أحقق لك مبتغاك"

"أنت تعلم أنني لا أرغب في شيء من الكنز؛ فراشيل هي كنزي.. الذي تمتلك أنت رموزه"

"سيكون في موعده؛ ثقْ بذلك"

شكر جون والدي ثم استأذن في الانصراف، مما جعلني أصعد إلى غرفتي بعدما خلعت حذائي لأمسكه في يدي، لا أدرى متى رأتني أمي، وإن كانت قد ظنت أنني كنت مع جون بالأسفل، أخبرتني ذلك بعد أيام، قبيل ذهابي إلى الحمام (حمام المقاصص بالجمالية)، كانت مصر ممتلئة بالحمامات.. منها المقاصص الخاص باليهود، والعفيف الذي كتب صاحبه عليه من أعلى: (من يطلب العافية من رب لطيف.. عليه بحمام العفيف)، وهو خاص بالمتصوفة، وحمام الثلاثاء الخاص بالمسيحين، كما كانت هناك حمامات اخرى أتذكر منها؛ حمام (سعيد السعداء)، و(الطبلي) الذي استخدمته القوات البريطانية يوم أصيبت مصر بداء التيفويد، وأجبروا العامة على دخوله لتلقي العلاج به عن طريق مياه كبريتية.. ذكرياتي مع مصر كثيرة وقديمة قدم عمري، الآن أذكر الأغاني الشعبية التي كانت تغنى في الزفة التي جمعت بي وجون، كنا محمولين على عربة تجرها الأحصنة (كَرِتَّه)، والأهالي يحيطون بنا من كل جانب، وأنا أمسك الأزهار لألقيها في كل اتجاه. بينما تمسك أمي مبخرة لتقول:

"الأولى بسم الله، والثانية من عين التنين، والثالثة من الخرزة الزرقاء"

كما كان الهيفة يهتفون باسم جون قائلين..

"يانج بنور ياعر يسنا الزين"، كانت أجواء كلها سعيدة، وكنت أنا سعيدة بحق، حتى بعد معرفتي الحقيقة التي تحدث فيها جون ووالدي، لم يحضر لعقد الزواج الحاخام الأكبر كما هو متبع، بل حضر حاخام، كان

أصغر سنا من أن يكون حاخامًا.. أظنني كنت أكبره بسنوات عديدة.. كان ينظر إلى أبي وجون بامتنان بالغ، وكان يباركنا أكثر من مرة، وكأن أبي أو جون قد طلب منه فعل ذلك..

مرت أيام زواجي الأولى سعيدة وجميلة بقرب من أحب قلبي وفي منزلي لم أغادره، وعلى الرغم من انفراد أبي بجون لساعات في المكتب.. إلا أنني لم اتأفف أو أتصنع حزنا أو غضبًا.. وقد قمت بزيارة المعبد مرتين لطلب البركة في الزواج والرزق وفي الأولاد.. ولم تكن أمي معنا في المنزل، إذ إنها كانت في زيارتها السنوية لخالتي ماري هنا في لندن.. لكني لم أجد الحاخام الأكبر هناك، كان الحاخام الصغير من كان هناك دوما، والذي عرفت اسمه فيما بعد أنه (الحاخام باشي سابان).

في زيارتي الأخيرة، مررت على طبيبة صديقتي كانت تعمل في المستشفى القبطي بالقرب من غمرة.. وقد أخبرتني أنني حامل في ابني بنيامين.. هللت مبتسمة، وقبلتها من خديها.. كنت أشعر أنني أكاد أطير من فرط سروري.. ها هو زواجي بحبيب قلبي جون قد اقترب لأن يمنى بمولود جميل.. ومررت ببعض المتاجر (صيداوي وعدس وشمله وريفولي)، واشتريت أغراضا كثيرة جدا، ملابس أطفال، وسرير وأرجوحة.. كل شيء وقعت عليه عيناي، وفي نهاية اليوم ذهبت إلى (جوربي) لشراء الجاوة والتوترات.. إنه أمر يستدعي الاحتفال.. كنت حريصة على أن أعود للمنزل في المساء وفي ساعة متأخرة، كي أفاجئ جون

وأبي.. لكن عندما وصلت إلى البيت، كانت سيارة أبي تقف بالخارج، ويجلس بها سائقه السوداني، سألته إن كان هناك ضيوف بالمنزل في مثل تلك الساعة المتأخرة.. أخبرني أن الحاخام سابان بالداخل.. أسرعت بالدخول متصورة أن يكون قد علم الحاخام أمر حملي وجاء لهما مبشرا قبلي.. لكن عند الباب، وجدت أن جميع الأنوار مغلقة، والباب مفتوح بحيث يسمح بدخول جسدي دون أن يشعروا بي.. وهالني ما رأيت.. كان أبي يجلس على الأرض، وإلى جواره يجلس جون، بينما افترش الحاخام سابان البهو كله بأشياء غريبة، شموع سوداء مضيئة، وجلود لحيوانات مغلفة ببقع الدماء الحية، ونجمة سداسية حمراء.. يقف هو في منتصفها وقد عرى نصف جسده، وبدأ يغمس كفه في الدماء ليلطخ بها جسده ويصيح:

"أحضر الآن وحرر الحارس.. بحق التابوت والسيف والسوط.. الواحا.. العجل"

تسمرت مكاني وأنا أرى أضواء الشموع تتراقص وترتفع رويدا رويدا إلى أعلى.. حتى وصلت إلى عنان السقف.. صرخت مرتعبة مما جعلهم جميعا يلتفتون إليَّ والذعر قد سكن عيونهم.. كانت نظرتهم كافية لإخراسي، لكن الشيء البشع الذي كان خلفهم، تحرك ليتحول من ظل إلى نار ملتهبة.. تأتي من كل صوب، وقد رأيتها تسير بسرعة صوبهم.. لم ينتبه إليها أحد سوى الحاخام سابان الذي أسرع إليَّ ليغلق الباب خلفه.. وأنا أرى في أقل من ثانية جون وأبي والنيران تأكلهما أكلا.

(٢٠)
عايدة (٧)

كل ما كان في قلبي وقتها مجرد شك، لكن عقلي كان يخبرني دوما أن ما أفكر فيه أمر مستحيل حتى على مستوى الصدفة؛ فغير معقول أن أكون أنا أمتلك شقة في عمارة، بنيت على أثر لأحد منازل اليهود الأثرياء في عصر الملكية، أي يفصلنا عن تلك القصة وهذه الأمور سنوات عديدة.. قلت لنفسي: "إنني ربما تأثرت بقصة الحب التي روتها لي راش عن جدتها وجدها.. تخيلي للمكان وللشوارع ولكل شيء، جعلني أشعر بأنني في حلم، لكنه حلما متوافق جدا مع تطلعاتي كفتاة تحب الماضي وتحن إلى أي جزء به مكنون من حنين لأي شيء."، لكن الشك الذي كان يحدثني به قلبي تغلب عليَّ وجعلني أبحث في محرك البحث جوجل عن المعادي كلها بشوارعها، وسبب تسميتها وسكانها الأصليين من اليهود والمسلمين.. أعتقد أن للإنترنت فوائده العظيمة في ذلك.. توقفت عند الشارع الذي يحمل اسم والد الجدة راشيل؛ إنه شارع أبانوا، وقد علمت أنه الآن يحمل اسم شارع سبعة، فالمعادي كلها تحولت شوارعها إلى أرقام وحذفت الأسماء منها، كان عليَّ أن أتبيَّن الأمر من والدتي، وعندما هممت في الصباح بمنضاتها كي أسألها عن الأمر، وجدتها قد غادرت المنزل، وتركت ورقة صغيرة على المنضدة تخبرني أنها ذهبت؛ لأن اليوم هو موعد استلام الإعانة الشهرية،

التي كانت هي كل ما تبقى من أبي.. وأنا أحضر فطوري، ووردتني فكرة أن أتسلل إلى غرفة أمي كي أبحث بنفسي عن عقود الشقة.. لابد أنها وضعتها بين أغراضها بهدف الحفاظ عليها من الضياع.. اتجهت صوب الباب المغلق لغرفتها، ووجدت مفتاحها به، فعلت ما وجب عليَّ فعله أولا، ذهبت إلى الباب الكبير وأغلقته بإحكام من الداخل، لا أريد أن تضبطني أمي متلبسة بالعبث في أشيائها، صحيح أن العقد والشقة هناك كلها ملكي الآن، لكن ربما الخوف والاهتزاز الذي يلازمني الآن، نتاج سنوات من العيش بالطاعة العمياء لأمي، ربما لأن حياتي إلى الآن لم أرَ فيها سوى أمي كمتحكم حتى في شعوري.. استدرت صوب الباب مرة أخرى، وكانت دقات قلبي العالية تخبرني أن أمي موجودة هنا ولم تغادر، ربما عندما أفتح الباب سأجدها بالداخل.. مستحيل فعلا، لكن قلبي ورهبته جعلاني أضع كل مستحيل في حكم التحقق.. أدرت المقبض ودخلت.. كنت أعلم أنه يجب عليَّ البحث في الدولاب الخاص بها أولا، وبالفعل بحثت في كل مكان به دون أن افتعل أي فوضى في ترتيب الثياب المتراصة.. وانحنيت لأرفع مرتبة السرير عاليا، لكني لم أجد أي شيء تحتها هي الأخرى.. غرفة أمي صغيرة وضيقة، لا يوجد بها سوى هذا السرير وذاك الدولاب، وبعض حقائب سفرنا، وفي جانب زاوية قرب الشرفة يوجد الكرسي المتحرك الذي كان يستعمله أبي، ذهبت إليه أمرر يدى عليه وشعرت بالدفء، دفء لذيذ، كأنني أحتضنه، أغمضت عيني من فرط عدم قدرتي على منع دموعٍ عابرة، دموع حنين أو

دموع حب حقيقي لكل شيء ينتمي إلى أبي.. لطالما كنت أفكر دوما في أن أدفع الباب لأجلس محنيه على ركبتي قرب قدميه، فقط لأخبره أنني أحبه جدا.. بعض الكلمات تظل حبيسة الصدور.. لماذا نؤجل دوما كل شيء للغد؟! ماذا لو لم يكن في الأصل غد؟! أو ربما أتى الغد يوما ونحن لسنا به!! قاسية اللحظة وصعبة.. كان لابد من شيء يحدث ليخرجني منها.. لم أنتبه لأنني قمت بتحريك الكرسي صوب الجانب أكثر، مما جعل حقيبة سفر مغلقة تقع وتنفتح أمام عيني، وبنظرة واحدة أيقنت أن مبتغاي كان ظاهرا أمامي على الأرض، ملف من الورق المقوى مكتوب عليه بخط عريض:

"شقة عايدة"

أمسكت الملف غير منتبهة للفوضى التي أصبحت منتشرة على الأرض.. بالطبع الحقيبة تحتوي على أغراض أخرى، أوراق كثيرة محزمة بحبال صغيرة، ودفاتر اصفرَّ ورقها، وأقلام وساعات وهواتف منتهية الاستخدام.. لم أنتبه لكل هذا، ولم أركز على أي شيء سوى الملف الذي يحمل اسم شقة عايدة، أسرعت بفتحه لأجد أول عقد مدون به اسم البائع ماجد عبدالهادي، والمشتري عايدة هاشم، وضعته على ظهره لأجد عقدا أقدم منه؛ انتقل اسم والد عمر لخانة المشتري وتذيل اسم البائع بـ"راضي إسماعيل"، وهكذا سبع عقود متنوعة ومتعددة الأسماء فيها من بائع ومشترٍ، حتى وجدت عقدا قديما جدا يقع في آخر هذا الملف، كانت الورقة تحمل بالأعلى ختم المملكة المصرية، وقد كتب بخط فخيم اسم البائع راشيل

أبانوا، واسم المشترى الحاخام بأي سابان.. كان العقد لبيع أرض خالية بمساحة كبيرة بغرض بنائها عمارة، لم يكن عقد الشقة فقط، لكنه عقد يعطي لكل مشترٍ قام بشراء شقة في هذا العقار إسنادا لمبدأ الأصول الملكية.. كانت الإمضاءات واضحة، وقد ذيَّل هذا الحاخام العقد بختم على شكل نجمة داود، توسطها اسم (سابان) فقط.. لقد صدق حدس قلبي، وازداد تصديقي له بالمستند الذي بين يدي الآن، لكن هذا كله قد فتح بابا لعديد من الأسئلة التي تدق الآن في رأسي.. أمي أخبرتني أن والد عمر هو من أتى بهذا الشر إلى الشقة، إذن لماذا تغير وجه راشيل الجدة عندما علمت أنني من مصر؟ وعندما قرأت فنجاني؟ هل لهذا الشر تاريخٌ قديم يسبق محاولة والد عمر بكثير؟! هل هو من تسبب في الحريق الذي أخبرتني عنه راش عندما قصت عليَّ حكايات الحب بين جدها وبين جدتها؟! هل مقابلتي لهذه العائلة بالذات محض صدفة؟! لم أؤمن يوما بالصدفة!! لكن ما حدث أنه وللآن صدف لا تصدق!! جعلتني أمسك العقد الأول وأطويه بين يدي، وأبدأ لملمة الملف مرة أخرى وإعادته إلى الحقيبة.. انتبهت بالطبع وقتها للأشياء الأخرى التي كانت قد تناثرت، فبدأت ململمتها هي أيضا، لم أنتبه مع الأسف لترتيبها داخل الحقيبة، لكن هذا أمر غير مهم أبدا؛ فأمي من الواضح أنها لا تستعمل تلك الحقيبة، سوى كل حين وحين إذا احتاجت لشيء بها.. توقفت وأنا أمسك دفتر يوميات صغير بحجم كف اليد، كان ورقه مازال يحتفظ ببياضه، وكان مرسوما عليه صورة لكرتون لا أتذكره،

لكنها صورة مبهجة جدا جعلتني أشعر أن هذا الدفتر قد مرَّ أمام عيني قبل ذلك اليوم، إنه يذكرني بشيء، بشخص.. لا أعرف!! لكنني اندفعت لفتحه فقط للاطلاع على أول صفحة.. وما أن فتحتها حتى شهقت، واحمرَّ وجهي، وللحظة شعرت أن الدفتر ينزلق من بين يدي، كانت الصفحة الأولى مكتوب فيها:

"إلى عايدة أنا عمر"

مرت دقائق وأنا قد وقفت منتصبة، أحاول أن أستنشق الهواء.. لا أصدق أنني درت بالغرفة دورة كاملة، مشاعر متداخلة مضطربة، من مجرد جملة قرأتها قبل ثوانٍ، وحاولت أن أفتح باب الشرفة المغلق كي أقف في الهواء الطلق، لكن الباب أبدا لم يستجب لي، مما دفعني أن أجلس بالقرب من الحقيبة، وأضم الدفتر إلى صدري ثم أغلقها بإحكام بعدما حصلت من الغرفة كلها على أكثر ما تمنيت أن أجد بداخلها.. كنت أبحث عن عقد شقة، والآن وجدت عمر بداخلها!! كانت اللحظة مناسبة تماما وكأنها صافرة الحكم في نهاية المباراة.. ما أن غادرت الغرفة إلى غرفتي، حتى أغلقتها مثلما كانت.. رنت أمي الجرس بعد أن كنت قد تخلصت من العقد والدفتر داخل دولابي الخاص، وفي غرفتي تصنعت التكاسل والإبطاء، وكأنني قد صحوت للتو على دقات الجرس وفتحت الباب لها:

"كل هذا نوم يا عايدة؟!"

تصنعت التثاؤب، لكن أمي تركت كل شيء ونظرت إلى بقايا الإفطار على المنضدة، كنت فاشلة حتى في أن أكذب عليها لمرة واحدة، كانت نظرتها حارقة، لكنها لم تنطق كلمة.. فتحت غرفتها ونظرت في أرجائها.. وضعت يدي على رأسي، نسيت أن أعيد الكرسي المتحرك إلى مكانه، وكانت أمي ذكية بالقدر الكافي لتفهم كل شيء لم أفصح أنا عنه.. أغلقت باب غرفتها خلفها لتقول لي:

"تناولي إفطارك يا عايدة، ولنا حديث بعده، لا عليك من أمري فقد تناولت إفطارا في الخارج".

(٢١)

عايدة (٨)

أنهيت فطوري وأنا أفكر في كل شيء، كل الأمور التي استجدت هذا اليوم، وكأن اليوم فقط أشعر أن جزءا من عايدة التائهة أو المفقودة مني قد عاد، كنت أتحرك ببطء وأمضغ الطعام ببطء، أذكر لحظاتي بالقرب من مقعد أبي، أحزن، ثم أبتسم عندما أتذكر اللحظة التي وجدت فيها أوراق عمر، يبدو أنه كتبها يوم أن غادرنا.. لكن كيف لم تعطه أمي لي؟! ولا مرة حدثتني عنه.. تساءلت ماذا كتب في الصفحات التي تلي الصفحة التي قرأتها، ثم تذكرت أمر العقد وقصة المكان الذي بُنِيَ عليه البيت، وعلاقة كل هذا بعائلة راش، وجدتني أبدو متحيرة قليلا، أدق بملعقتي أطراف الطبق الذي أمامي، أنتظر خروج أمي، أنتظر المواجهة الصعبة والمؤجلة لسنوات طويلة مضت.. لابد وأنها ما أن أغلقت الباب حتى فتحت الحقيبة، وبنظرة سريعة ستكتشف أن دفتر عمر قد نقص منها، ربما لا تنتبه للعقد لأنه كان مدسوسا داخل الملف، وأنا قد وضعت الملف في مكانه، وحرصت على ألا يبدو عليه العبث.. لم تخرج أمي إلى الآن، مما دفعني إلى رفع بقايا الإفطار والوقوف في الصالون متحيرة في الاختيار!! أأهاجمها بفتح باب غرفتها وأجعلها أرضا ليوم المواجهة.. أم أنتظر في غرفتي حتى تأتي هي إلى غرفتي.. بها شيء يجذبني إليها أكثر.. تسكن عقلي وقلبي كلمات عمر إليَّ، أعلم أنه كتبها منذ

كان طفلا، حتى وإن كان وقتها يسبقني بأعوام قليلة؛ لكنها بها شيء من عبير طفولتنا التي مضت!! عزمت أمري واتجهت إلى غرفتي، وأخرجت الدفتر من الدولاب، تلمست أوراقه ومن ثم فتحته على الصفحة نفسها التي كنت قد قرأتها قبلا..

"إلى عايدة، أنا عمر"

حركت أطراف أصابعي على اسمي، ثم نزلت بها إلى اسمه.. كان حريصا أن يكتب بحروف جيدة، وعلى الرغم من ذلك، كان حرف العين كبيرا في كل من عمر وعايدة.. انتبهت للتو أن أسماءنا متشابهة حتى في معانيها.. عايدة اسم يدل على العودة أو التعود أو التأقلم، وهذا يشبهني كثيرا، لقد تعلمت أن أتأقلم وأن أتعود، أن أرضى بكل شيء تفعله الحياة بي، وربما أنا عايدة التي يقصد بها تكرار كل شيء مرات ومرات.. وها أنا يحدث معي ذلك، أسافر وأترك عمر، لأجده هنا بين جنبات حقيبة قديمة.. وعمر؛ اسمه يعني البقاء أو التعمير.. هل عمر يبقى مهما غاب؟! تساءلت؛ أهناك دليل على ذلك أكثر مما حدث لي لمجرد رؤية كلماته؟! أم إن اسم عمر يعني شيئا آخر، مثلا يعني أنه يسكن أو ساكن لا يتغير؟! هل عمر لم يتغير إلى الآن؟! أنا نفسي تغيرت كثيرا، أو ربما هذه أنا الآن، على الأقل لو لم أتغير، لن أستطيع أن أحن لأشيائي القديمة.. وأنا أعتبر عمر كل أشيائي مجتمعة، أتمنى أن يكون قد تغير كي يكون مثلي، يحلم بأني من أشيائه التي

فقدها... قلبت الدفتر برفق لأجد في كل صفحة رسالة.. كانت الأولى هي..

"عندما تحصلين على هذا الدفتر، وذلك لأنه بين أغراضك.. ستكونين في بلاد بعيدة عني، فقط كوني بخير لأجلي"

الرسالة الثانية..

"لابد وأن تقرئيها بعد أسبوع من سفركم.. أعلم أنه ليس لديك وقت.. لكن احرصي على أن تبتسمي وتذكريني للحظة.. كل ساعة من يومك."

"عايدة.. أنا أشتاق لوجودك.. أقصد أنني سأشتاق لكِ"

"لابد وأنه مرت أيام كثيرة.. ولابد أنك أصبحت في مثل طولي قبل سفرك، إذا كنت قد أصبحت، تستطيعين أن تري نفسك في مرآة؛ فاغمضي عينيك وابتسمي، واعلمي أنك أجمل الفتيات."

فُتِحَ باب الغرفة فجأة فانتفض جسدي.. كانت أمي بالباب، ونظرت إلي وسألتني:

"لماذا وجهك مكتنز وأحمر إلى هذا الحد؟!"

وضعت الدفتر إلى جواري لأقول ببرود غير معتاد:

"لا شيء"

اقتربت أمي مني وجلستْ إلى جواري فوق سريري لتقول لي:

"اسمعي يا عايدة أنا لم أمنع عنك شيئا أو... أقصد أنني لم أقصد يوما أن أمنع عنك أي شيء" ونظرت شذرا إلى الدفتر..

"أقصد أنني كنت خائفة عليك، إنه مجرد دفتر يوميات لطفل لا يعي معظم ما كتبه به.. كنت أخشى أن يجعلك ناقمة على الحياة هنا.. كنت أخشى عليك من التعلق.. كانت ظروفنا صعبة.. صدقيني أنا لا أكره عمر، هو كان طفلا وقتها، وأنا كنت أدافع عن عائلتي، عائلتي هذه هي أنتِ، وأنتِ فقط.. كل ما أردته هو تأمين مستقبلك، العمل على حياة أفضل لكِ، لذا لم يكن هناك مجال لأن أترك بين يديكِ دفترا من طفل لن تريه مرة أخرى!! أتفهم شعوره جدا، أقصد شعوركِ وشعوره معا.. أنتما طفلان عشتما أياما كانت العالم بالنسبة لكما وقت ذاك.. أتظنيني كنت لا أحبذ أن تكوني مثل باقي الفتيات؛ لديك صداقات عاقلة مع شباب من هنا أو حتى فتيات.. أعلم أنني كنت قاسية حتى في حرمانك من شيء كهذا، لكنها قسوة نابعة من المحبة، لقد فقدت أباك على الرغم من أنه كان موجودا معنا لسنوات، وهذا ما جعلني أخشى أكثر عليك من الفقد.. أنا آسفة". كانت تتحدث ودموع عينيها تتلألأ على خديها كحبات من الماس.. لم أتحمل أن تتأسف أمي لي فارتميت على صدرها، وبدأت تملس بيدها على شعري، شعرت بطاقة حنان كبيرة لأول مرة، أرتجف من قربها لأول مرة، أشعر بها كأنثى لا كأمي، وجدتني أتحدث إليها قائلة:

"أمي.. اكتشفت أمرا خطيرا"

وبدأت سرد كل شيء عليها.. راش وراشيل والقهوة، ومعلومات محرك البحث والعقد، حتى إنني أخرجته لها لتتأكد بنفسها، فسألتني: "ماذا تريدين أن تفعلي؟!"

"سأذهب إلى منزل راشيل.. لابد أن أتحدث مع جدتها في كل شيء، ربما هناك أمور ستتضح من حديثي معها"

"لكنني أخشى عليك.. أنت لا تجيدين الحديث مع الأغراب، كما أنك وحيدة هنا، حتى وأنا معك"

"أمي أرجوكِ.. إن عائلة راش عائلة جيدة جدا.. كل الأمر أن تلك الصدفة غير مقبولة بالنسبة لعقلي، وربما لديها تفسير لكل هذا الكابوس الذي يزورني كل ليلة.. لكل شيء!!"

"إذن، عليَّ الذهاب معكِ"

"لا، أمي أرجوك.. لست طفلة"

مسحت بيدها بحنية أكثر على وجهي

"ستظلين طفلتي حتى آخر يوم من عمري"

دق جرس الباب، لأنتفض من صوته.. كنت ما زلت أضع رأسي على صدر أمي، رفعتْه برفق، وخرجتْ صوب الباب لتفتحه وبعدها بلحظات أسمع صوت راش:

"هل عايدة موجودة؟"

عدلت رأسي وانسحبت من سريري إلى الخارج، لأقول لها:

"أنا هنا يا راش"

ابتسمت لي، وأشارت، كانت ترتدي الخوذة الزرقاء، لابد أنها أتت بدرجاتها.. سحبتها من يدها وفي منتصف الصالون قلت لأمي:

"صديقتي راش يا أمي.."

حيَّتها أمي، بينما تابعنا سويًّا إلى غرفتي.. كنت أريد إخبار أي شخص غير أمي بأمر الكتابات التي في دفتر عمر.. كانت سعادتي طافحة على وجهي، أمسكت الدفتر وأعطيته لراش، تصفحته هي الأخرى..

"ما هذا عايدة؟! أنا لست قوية في العربية مثل أبي وجدتي!"

"إنه دفتر رسائل من عمر إليَّ، عندما كنا أطفالا.. لقد تحصلت عليه اليوم فقط"

"يا إلهي عمر.. ومن عمر؟"

تذكرت أن عمر هو سري الأبدي، سرُّ حياتي، وسر كل شعور بداخلي، وأنني لم أبح حتى باشتياقي لرؤياه إلى أحد.. كان عليَّ أن أقص القصة كاملة على راش التي كانت تبتسم مع كل كلمة أنطقها في حق عمر..

"إنه ليس عمر يا عايدة.. إنه سوبر عمر بالنسبة لك.. لكن اسمعي، يمكنك أن تتحدثي إليه، أن تراسليه على الأقل وأن.."

قاطعتها:

"مستحيل!! لقد فقدته منذ كنا أطفالا، ولا أعلم له عنوانا أو حتى بريدا أستطيع مراسلته عليه"

ضحكت راش:

"بريدا!! يمكنك استخدام تطبيقات التواصل على هاتفك"

"لديَّ مخاوف كثيرة، أخشى أن يكون قد نسي أو أن يقابل رسائلي بجفاء، وحتى إنني لا أعلم كيف أصل إليه.. ليس لديَّ أي بيانات عنه"

"اسمعي، أتعلمين اسمه بالكامل؟"

"نعم أعلمه.. عمر ماجد عبدالهادي"

"جميل جدا.. اسمعي، سنقوم بالبحث عنه بهذا الاسم.. أغلب ظني أننا سنجد عددا من النتائج، فأغلب الشباب أو الرجال لا يكتبون أسماء مستعارة مثلنا، ولا يستخدمون أسماء وهمية أو كنيات بكثرة.. كل الأمر أننا سنصنع البحث باللغة العربية مرة، وبالإنجليزية مرة أخرى، وستظهر لنا عدة نتائج.."

"أووه راش، وكيف سنتعرف إليه إذن؟"

وضعت راش يدها على رأسها وكأن أفكارها نفدت، ثم قالت:

"امم سنستغل هذا الدفتر في الوصول إليه!!"

"ماذا؟!"

"اسمعي.. كل الأسماء التي ستظهر في النتائج سنرسل لها صورة لهذا الدفتر، لورقة واحدة منه فقط، وعمر الذي تقصدينه هو من سيقوم بالرد فور رؤيته، إن كان يمثل له مثل ما يمثل لك، أما الباقين فسنقوم بحظرهم"

"لكن كيف سنفعل ذلك.. وأنا لا أمتلك أيَّة حسابات على تلك التطبيقات؟!"

"بسيطة جدا!!"

"بسيطة؟!" قلتها متعجبة

"نعم، بسيطة.. لدي عدة حسابات على هاتفي بأسماء وهمية كثيرة انظري.."

وفتحت هاتفها لتريني عدة حسابات..

"راشيل"، "الزهرة البيضاء"، "رودي"، "سيلينا"، "فاطمة الزهراء"

رفعت حاجبي.. ابتسمت هي بطفولتها لتقول:

"أحب أن أتعرف إلى جميع الناس.. أنت تعرفين حساسية الشباب العربي لفتاة يهودية مثلي.. هيا اختاري. أيهم؟ لكن اتركي راشيل"

"امم.. من الجميل أن أحدث عمر باسم مستعار، حتى لو أنه لم يرد أو يهتم بأمر الصورة من الدفتر.. رفعت عني غطاء الحذر.. لقد اخترت سيلينا هذا يعجبني"

في لحظات بسيطة، كانت راش قد فعلت هذا الحساب على هاتفي.. سيلينا، ثم ابتسمت وهي تعطيني الهاتف:

"مرحبا بك في العالم الأزرق.. لكن أحذرك أن تأتيني لتأخذي حسابي الذي هو باسم راشيل"

تذكرت أنني أريد الذهاب معها للقاء جدتها وسؤالها عن أمر ضروري.. لكنها وضعت يدها على رأسها وضربتها بخفة لتقول:

"لقد أنسيتني أنت وهذا العمر أمرا هاما، جدتي تنتظرنا في المنزل، ويبدو أنه أمر هام جدا!! لقد طلبت مني الإسراع بإحضارك."

(٢٢)

عمر (٨)

كانت الدقات على الباب تذكرني بعامر، كانت دقات مميزة بحيث لا أخطئ في نسبها له، وكانت حالتي بالفعل تحتاج إلى عودته، لكن عندما فتحت الباب صدمت بالواقف أمامي، كان شابًّا في مثل سني تقريبا، عرَّفني إليه أنه محمود عبدالسلام الساكن في الشقة التي هي أسفل مني، كان جميل المحيا، بحيث تنظر إلى وجهه فتشعر بالارتياح، وجه مستدير تزينه لحية خفيفة، ويرتدي نظارة طبية على عينيه تشعرك بالوقار:

"أنا آسف يا باشمهندس عمر، لكن لديَّ شيء في شقتي أرجو أن تراه بنفسك"

فطلبت منه انتظاري حتى أرتدي ملابسي، وبالفعل صحبته إلى الشقة، ومررت معه من صالونها إلى المطبخ والحمام، كان السقف مبللًا بالماء، وتتساقط منه كميات ليست بالقليلة، مما ينذر بكارثة حتما؛ العقار قديم والأسقف لا تتحمل مثل تلك الأمور، كان عليَّ أن أتصرف حيال الأمر، وبالفعل أخذني في سيارته إلى أحد عمال السباكة الذي صعد إلى غرفتي والشقة، ثم أخبرنا أنه يجب عليَّ إخلاء الغرفة، لأن الأمر يحتاج إلى حفر بمعدات وقتا ليس بالطويل، حوالي أسبوعين فقط، كنت لا أعلم لي مكانا آخر أذهب إليه، فوقفت متحيرا، إلا أن محمود قدم اقتراحا ممتازا،

وهو أن أنقل معظم احتياجاتي إلى شقته، حيث إنه عائد من الخارج ولا أحد يسكن معه، على أن يساعدني في إخراج باقي متعلقات إلى السطح حتى ينتهي العامل من عمله، كان اقتراحًا لكنه بالنسبة لي أمر حتميٌّ، وافقت وأنا أشعر بأنني ربما سأسبب له قلقا أو أي شيء من قبيل ذلك، كانت ابتسامته العذبة دليل أنني فقط من فكر بحساسية تجاه الأمر، وكان السكن معه منذ تلك الليلة على سريري الذي قمنا بنقله بالقرب من سريره الذي يفصلني عنه منضدة، عليها بعض الكتب التراثية والتاريخية، مما جعلني أسأله عن تخصصه فأخبرني أنه مدرس دراسات إسلامية، كان لا يتحدث كثيرا، لا يريد أن يقص عليَّ أيَّة قصة، فقط ممسكٌ بمصحفه ويقرأ فيه بعينيه، رفع عينه من المصحف ليسألني:

"هل صليت العشاء يا باشمهندس عمر؟"

كنت أشعر بارتباك؛ أنا لم أصلِ أي عشاء منذ يوم وفاة أمي، شعرت بمدى البعد بيني وبين الله، كنت أشعر بالحزن والكآبة من ليلة أمس، وأشعر أن هناك شيء ينقصني، شيء كنت أداوي به أوجاع عمري، شيء أرتاح به من كل هم، كنت أنتظر من يسألني عنه، وهو يعرفني به، نفضت الغطاء عن جسدي ووقفت لأقول له:

"لا، لم أصلِّ"

وذهبت إلى الحمام وتوضأت، كنت قد نسيت اتجاه القبلة في المنزل، أنا نفسي غير متخيل الأمر، لقد نسيت كل ما حفظته مع عامر، نسيت كل شيء، وكأنني احتللت من شخص آخر طوال أعوام، تحرك محمود من سريره ليعدل لي المصلاة التي كنت فرشتها في اتجاه خاطئ، وكبَّرت وأنا أشعر بالخجل، واحمرار وجهي دخل في الصلاة، كان محمود يحاول أن يتجاهل النظر لي، لكنه كان يختلس ابتسامة كلما رمقني بنظرة غير ظاهرة، كنت أشعر بشيء أو أمر شعرت به منذ زمن، الهواء البارد الذي كان يتلف حتى وأنا أقرأ القرآن طفلا، صوت عامر وهو يجذب يدي كل مساء لأستيقظ وأصلي الفجر، أنهيت صلاتي وأنا أشعر باطمئنان غريب، وكأني محيت كل ما مررت به بأربع ركعات فقط، نظرت إلى محمود الذي أغلق مصحفه، وكأنه يعطيني إذنا للنظر فيه، تذكرت أنني لم أحتفظ أبدا بمصحف في غرفتي، وبدأت أحرك يدي عليه وهو ساكن على المنضدة، ثم رفعته لأجلس في سريري وأقرأ ما تيسر لي أن أقرأ، وما أن انتهيت حتى لمحت ابتسامات محمود الرقيقة، حتى سألني هو:

"أين تعمل يا باشمهندس عمر؟"

"مبدئيا، أنا أقول لك محمود، فوجب عليك أن تناديني عمر"

ابتسم خجلا ثم قال:

"أين تعمل الآن يا عمر"

كان سؤالا سهلا جدا، لكنه بالنسبة لي كان الأصعب، الحقيقة دوما أصعب ما نستطيع البوح به، أأخبره أنني مهندس فاشل أم نصاب تائب أم عاطل لا يعلم ما يخبئه الغد له؟ كل إجابه من كل ذلك ستفتح على بابا لأقص عليه كل شيء، ربما لو لم أرمِ بكل همومي على تلك الفتاة التي كانت معي بالأمس، لكنت الآن أقص على مسامع محمود ما قد يدفعه أن يرمي به خارج تلك الشقة، كانت تعابير وجهه توحي بأنه سيفهم كل شيء، لكن أنا الذي أفرغ زناد همومه، ولم يعد لديه طاقة ليحكي كل شيء.

"أنا عاطل، بحثت عن عمل ولم أجد"

"أزمة العمل دوما متواجدة في كل البلاد العربية، أظنها أمر مدسوس فينا، هناك قوة عظمى ترغب في إبقاء شبابنا مغيبين عاطلين"

قهقهت أنا لأقول:

"تلك كلها حجج واهية، لكنها ظروف بلد بالكامل، ظروف أجيال متعاقبة"

سألته عن سفره، أخبرني أنه ترك الشقة هنا صغيرا، وتعلم الدراسات الإسلامية بالسعودية، وعاد ليسكن هنا بعد أن توفر له عمل في مدرسة قريبة من هنا، كما أخبرني أن الفجر قد لاح، لذا حاولنا النوم ساعتين أو أقل، ثم أيقظني محمود لصلاة الفجر في المسجد القريب، بدا الفجر كأنه فجر آخر، فجر جديد، شيء ما بي قد انتهى، وأصبحت أقصد عودة عمر الحقيقي بكل براءته التي دنستها أعماله وأفعاله.

مر الأسبوع الأول وقد تعودت على أن محمود يطرق الباب بعد الظهيرة، موعد عودته وكنت أنا أجلس في الشقة أصلي أو أقرأ القرآن، حتى ناداني محمود ذات يوم من أمام الباب، ليطلب مني ارتداء ملابسي، وإحضار أوراق عملي في ملف، كنت لا أفهم أو أعي ما يريد فعله، حتى توقفنا عند مقر شركة شهيرة للمقاولات، وطلب مني الصعود ومقابلة صاحبها؛ للالتحاق بعمل لديه، كان صاحبها صاحب وجه لا يقل ضياء عن وجه محمود، وقد قبلني في العمل وكأنني رزقت بمحمد عوضا عن عامر، وعن عايدة وعن كل عزيز كان يهمه أمري.

استطعت أن أجد مبتغاي في العمل، وأصبحت ملتزما بعض الشيء، حاولت أن أقلد محمود في كل شيء، حتى أصبحنا نسختين متماثلتين، أصبحت لدي لحية خفيفة، وأصبحت دائم الذهاب إلى المسجد القريب. ذات ليلة أمسك محمود هاتفي ليقول لي لماذا لا تستخدم كل هذه التطبيقات التي عليه؟ أخبرته أنها بلا فائدة، لكنه تحدث عن أن كل شيء لديه فائدة وضرر، والمؤمن الكيِّس هو من يستطيع أن يفرق بينهما، أخبرني أن العبد الصالح وحده قد تغلبه الحياة، لكن النصيحة المُثلى هي أن تحط نفسك بالصالحين، حتى ولو لم تكن منهم، أمسكت هاتفي، وقمت بفتح صفحة الفيس الخاصة بي، وبدأت أبحث عن صفحات المقرئين والشيوخ الدعويين، وصفحات الكتب الإسلامية الشهيرة، وبدأت إرسال طلبات صداقة إلى أصدقاء رأيت في تعليقاتهم شيئًا من الصلاح، وحاولت النوم

بعد أن قرأت ما تيسر من القرآن، كان محمود قد استسلم للنوم العميق، بينما أنا قد غفوت بين النوم واليقظة، لأراها لأول مرة في أحلامي "عايدة"، لكنها ليست طفلة، بل شابة جميلة، بلون عينيها نفسه الذي أحفظه، تقف في مكان مظلم، وتلتف عدة حيَّات حولها من كل جانب، تصرخ منادية إياي، والأفاعي تقترب منها أكثر فأكثر، رأيتني أحاول الوصول لها، لكن أفعى منهم لونها أسود التفتت إليَّ، كانت عيونها ذات شرار، تجمدت في مكاني حتى بدأت تشم جسدي، واختفى صوت عايدة، والافعى تلتف حول جسدي، وأنا مستسلم تماما للأمر، بدأت اعتصاري، وشعرت بأن روحي سوف تخرج، خرجت مني آهة مكتومة محاولة فعل شيء، كنت أشعر بالشلل التام، والأفعى تصعد رأسها بالقرب من رقبتها، وما أن شعرت بلدغة حتى صرخت بأقصى درجة، وجدتني في الغرفة وإلى جوار محمود، يقف ويضع يده في كوب ماء وقد رش قطرات منه على وجهي وملابسي، استعذت بالله من الشيطان الرجيم، وهدأت بعض الشيء، كان قرآن الفجر قد بدأ يأتيني صوته من المسجد القريب، وقد تحضر محمود للصلاة، وتبعته بالوضوء، وعندما هممنا أن نخرج للصلاة، سمعت رنين الرسائل من هاتفي، عدت إليه وهو ساكن على المنضدة لأفتحه، وأجد طلب مراسلة من فتاة تدعى سيلينا، لم أهتم وأغلقته حتى أتفرغ للصلاة، ولحقت بمحمود.

(٢٣)
عايدة (٩)

وضعت أمي يدها في يدي ونحن نغلق باب سكننا، بينما سبقتنا راش بدراجتها إلى منزلهم، كانت أمي تمسك كفي بشدة ولا تلتفت تجاهي أبدا، وعلى الرغم من ذلك، تذكرتها عندما كانت تمسك الكف نفسها منذ أعوام عديدة، وتسحبني سحبا إلى المدرسة، وكان لسانها لا يتوقف عن إلقاء التعليمات على مسامعي:

"عايدة لا تتحدثي إلى الفتيان، كوني لطيفة مع الآخرين، اخبريني بكل شيء حتى ولو ظننتِ أنه تافه أو غير مهم، لا أريد أن أسمع شكوى منك من قبل أي شخص، إياك والمشكلات!"، هكذا كانت أمي دوما، لكن الآن بدت يدها على الرغم من شدتها ضعيفة، وانتبهت إلى التجاعيد التي أصبحت ذات مظهر على يدها، وانتبهت أيضا لملابسها، هي نفسها ملابس أمي ولم تشترِ ملابس جديدة، بدأت أفكر فيما جنيناه من الغرب والاغتراب من بيع سنوات عمرنا بلا ثمن، وبلا أي ثمن لم تتحقق أحلام أي من الغربة، هزمتها أيامها وطبعت على ملامحها ختم انتصارها، انسحبت الروح القديمة لها لتحل محلها روح أكثر بأسا وشقاء، روح تعكر صفوها بسبب ما لاقته من الآلام خلال سنوات الهروب، نعم، لكن أمي لم تكن تهرب بنا، كانت تحمل أملًا في غد مشرق، كانت حالمة وقتلت كل أحلامها

عمدا وترصدا مقصودا، سرحت بأفكاري إلى عايدة، أنا التي تمسكها هكذا في الشارع، كيف ستكون سنوات غربتي؟ هل سيأتي اليوم الذي تتخلى عني يدها للأبد؟ وماذا سأفعل حينما يحدث ذلك؟ لابد أنني سأتجرع الكأس نفسه، وأذوق كل ما ذاقته أمي، حتى لو كنت أعتلي منصبا أو مكانة أو وظيفة استثنائية، كل هذا عبث مبالغ فيه، ماذا سأفعل في عالم كله غريب عني، لقد شعرت الآن فقط أننا غصنان لشجرة حكما على نفسيهما بالموت البارد القاسي برودة الطقس هنا، كان وجهي حزينا في تلك اللحظات، شعرت أنني أفتقد شيئا مهما، هذا الشيء هو أمني الشخصي الذي فقدته يوم تركنا عمر وأمه، لأكثر من مرة يبقى عمر هو حلي الوحيد، ومنقذي حتى لو كان لا يدري هو بذلك.

دلفنا من باب منزل راش، ورأينا درجاتها وقد رميت بها على العشب الأصفر بالحديقة، وقفت أمي صوب الباب، بينما ضربت أنا الجرس، قام والد راش السيد بنيامين بفتح الباب، وبعربية سليمة عندما رأى أمي صاح قائلا: "أهلا وسهلا بضيوفنا الأعزاء"

وابتعد عن الباب كي نمر منه، كان هناك في المنزل تقف راش بجوار المقعد المتحرك لجدتها التي تجلس عليه، بينما جلس أبوها السيد بنيامين بالقرب منها، وتحدث:

"الجدة راشيل تريد أن تقص عليكما أمرًا هاما وضروريًّا يخص شيئا هو الأهم لديكما"

كنت أعلم بعضا مما ستقوله الجدة راشيل، وكانت تشعر هي تلك المعرفة، بدأت سرد قصة منزلهم القديم في المعادي، أقصد أنها قصت كل شيء تقريبا، وتقريبا أيضا أنها لم تكن المرة الأولى التي تقص عليهم ذلك، بدا أن السيد بنيامين لديه علم بالأمر، أما راش فأظنها كانت أول مرة تسمع القصة كاملة من جدتها أمامنا، تعبيرات الوجوه تفضح دوما، كانت الجدة قاسية الملامح، كلامها يوحي بالخطر الداهم الذي يتربص بي، وكان السيد بنيامين يساعدها في اختصار قصتها، أما راش فقد كانت كثيرة التعليقات بالانبهار، وكأنها تشاهد فيلم رعب أول مرة يعرض أمامها. كان علي أن أسأل عن الأهم:

"هل لديكم حل لكل هذا"

بدت لحظة طويلة من الصمت، تنهدت الجدة بعدها لتقول:

"الحاخام الذي قام بالطقوس ليلتها مازال حيا"

"الحاخام سابان!" قالتها راش وقد فتحت عينيها.

لكن أمي تساءلت:

"وماذا سيفيد في ذلك؟"

وقف السيد بنيامين على قدميه ليقول:

"لقد سافرت إليها أول أمس عندما أخبرتني أمي بالقصة، لم يكن لدي علم بالموضوع إلا عندما أخبرتني به، كانت دوما لا تقول الحقيقة كاملة، وأنا أبدا لم أكن أهتم بالأمر، لكن عندما أخبرتني القصة، تواصلت

مع عدد كبير من الحاخامات حول العالم، ليخبرونا أن الحاخام سابان مازال حيا، وأنه يدير كنسا يهوديا عريقا في تركيا، هذا الكنس يدعى نيف شالوم أو واحة السلام، وهو في حي كراكون، منطقة بيولوج اسطنبول.

"لقد سمعت هذا الاسم من قبل" قلتها وأنا متأكدة أنني سمعت به من قبل فعلا.

"بالطبع سمعت به أكثر من مرة، لقد تعرض للحريق أكثر من مرة على أيدي إرهابيين من سوريا ولبنان ومن تركيا نفسها، على الرغم من أنه يقع في منطقة هي الأكبر لتجمع اليهود بتركيا!" قالها السيد بنيامين. واستطرد ليقول:

"المهم أنني سافرت إليه بتعليمات من أمي، وعرفته بنفسي، على الرغم من كبر سنه، يسمي ما كان من أحداث شهد عليها حادثة حياته، لذلك كان من السهل أن يتذكر أمي، وقد حكى لي أنه طلب من أمي المغادرة فورا إلى أي بلد آخر، ولأنها قد تزوجت بالفعل ضابطًا من الجيش البريطاني، فكان سهلا عليها السفر إلى لندن، ومن ثم تولى هو بيع الأرض بما عليها من بقايا منزل احترق عن بكرة أبيه، لسبب مجهول لدى السلطات، وقد باعه لأحد المقاولين بعدما قام بطقوس معينة، يقول إن من شأنها جعل المكان قابلا للاستئجار، لا التمليك، فالحارس هناك لن يتحرر سوى بدماء المالك نفسه"

"عفوا لا أستوعب الأمر جيدا!" قالتها أمي وإن كنت أنا أيضا أكثر حيرة منها..

"الأمر ببساطة أن الحاخام سابان قد توصل إلى طريقة تجعل الحارس يقبل بالتعايش مع ساكني المكان، ولذلك سمح ببناء عمارة كاملة، وتسكينها، لكن دون أن يسكنها الحاخام نفسه، باعتباره تملك الأرض بعقد ملكية من أمي، وظل الوضع على ذلك سنوات ليس لها عدد، إلى أن قام أحدهم بمحاولة أخرى، جعلت من الحارس يقرر طرد ذلك المالك، أو أن يدفع له ثمن خطئه بدماء منه، ويبدو أنه تحصل على جزء منها، والشقة الآن محل كل هذا، أصبحت سكنا للحارس، وهو يطلب دماء المالكة الآن، أقصد دماء عايدة"

"وهل ستجدي طريقة الحاخام سابان معه هذه المرة؟"

"هذا ما نأمله جميعا، لو نجحت الطريقة، سيكون من حقكم إيجار الشقة لأي شخص دون أن يحدث له أي ضرر، الضرر سيكون موجودا فقط إن كنتم أنتم في الشقة"

"وما تلك الطقوس؟"

"سيقوم بها هو بنفسه"

"هل تقصد أننا سنسافر إلى تركيا"

هنا تحرك السيد بينجامين صوب غرفة الجدة المغلقة، ليظهر خلف بابها بعدما فتحه رجل في ثوب حاخامات اليهود الأسود، كان نصف وجهه محترق بالكامل، وكانت عيناه في النصف المحترق بيضاء كبياض الثلج، ممسوحة تماما ولا يبصر بها، والعين الأخرى لا ترى جيدا، كان يرتدي نظارة غليظة، ويمسك بمسبحة في نهايتها نجوم سداسية الشكل، يتحرك ببطء شديد مع انحناء نصف جسده للأمام.

"يا هو يبارك التاج أميت" الرب يبارك تجمعكم.

قالها بعربية سليمة، لكنها مفهومة بالنسبة لي، أشار بسبابته صوب أمي.

"أنتِ عايدة؟" قالها بعربية سليمة بينما أمسك بيده بنيامين يصوبها ناحيتي.

"هذه هي المالكة الحالية الشقة الملعونة بطلاسم الحارس"

"آه، فلتقترب إليَّ، ومن فضلكم لا أحد يدخل خلفنا إلى الغرفة"

اقتربت منه وأنا أشعر بجفاف حلقي وارتعاش أطرافي، كان في الحقيقة يخيفني، كل شيء فيه مخيف، حرق عينه، حديثة البطيء جدا، تمتمات وهو يسير بالقرب مني، ثم تقدمنا إلى الداخل، وأغلق الباب بالمفتاح، وأشار إلى المرآة، ففهمت أنه يطلب مني الجلوس على المقعد المقابل لها، أخرج من أحد الأدراج خمسة شموع سوداء متراصٌّ عليها أشكال تشبه الطلاسم، وأشعلها كلها أمام المرآة، بحيث ينعكس ضوؤها إلى داخل المرآة بشكل أكبر، ووضع يده على رأسي، ثم طلب مني خلع حجابي الذي أرتديه، ليمسك بمقص وينتزع به جزءا من الخصلات الخلفية، وبدأ يلف هذا الجزء كعقد في بعضها

بعضا، وبدأ ينفث فيها بكلمات عبرية أو سريانية، شعرت بدوار شديد مع كل عقدة، شعرت برغبة في القيء والضيق، في رغبة لعدم استكمال الأمر كله، نظر إليها بعينه السليمة ليقول لي:

"ما سترينه الآن غير مسموح لك أن تبوحي به لأحد أيًّا كان، حتى أمك التي هي في الخارج"

لم أملك سوى أن أهز رأسي بالموافقة، وأشعل بخورا ذا رائحة عطن ونتن، ووضع خصلات شعري بعقدها فيه، وبدأت تحترق، ثم وضع يده على رأسي: "الآن فقط، ستفتح لك عين ثالثة على جبهتك، سترين كل شيء بها في المرآة أمامك" وبدأ يضغط بيده على رأسي، وشعرت بثقلها كأنها صخرة، بينما يحرك المبخرة يمينا ويسارا بيده الأخرى، فجأة، أغمضت عيني لأرى المرآة أمامي وقد تجسد فيها الشر نفسه الذي أراه في كل أحلامي، ابتسم في لذة، ثم هشَّم زجاج المرآة، وانطبعت صورته على آلاف القطع الزجاجية المتناثرة مشكلة المرآة نفسها، ثم أخرج يديه ذوات المخالب، والحاخام يضغط بقوة أكبر على رأسي، بينما مخالب هذا الشر قد وجدت لها طريقا إلى رقبتي، وبدأت أشعر بتكسر عنقي والتوائه، أريد أن أصرخ، لكن صوتي قد بح، وشعرت بحشرجة كأنها خروج الروح، لم أدرِ بنفسي سوى وأنا فاقدة الوعي، وعندما أفقت وجدت آثار دماء في أحد أصابعي، ووجدت الحاخام يقول:

"لقد رضي الحارس بالقربان، ويمكنك إيجار الشقة من الغد"

هذا يعني أنها آخر مرة أرى فيها وجه الشر هذا، يعنى أنني مضطرة للنزول إلى مصر لعرض شقتي للإيجار، هذا يعني أيضا أن هناك أملا ولو ضئيلا في أن ألتقي بعمر أو البحث عنه!

(٢٤)
عايدة (١٠)

إنها الليلة الأولى التي أنام فيها ليلا، عدنا بالأمس من منزل راش صديقتي، كنت أشعر بأمر يشبه الجوع إلى النوم، ما أن انتهى الحاخام سابان من طقوسه، حتى وجدت عيوني ترغب بشدة في النوم، ربما بكيت كثيرا، لا أتذكر، ولا أريد أن أتذكر، فقط ترك الدمع أثره على وجنتي واحمرت عيوني من الداخل بشكل غريب، كنت لا أطيق الأضواء المنبعثة من أعمدة الإضاءة في الشوارع التي سلكتها مستندة على أمي، حتى وصلنا منزلنا، نظرت أمي إليَّ في حنان نادر لتربت على كتفي وتقول:

"من الأفضل أن تتناولي طعامك وترتاحي بعض الوقت"، تركتني هي وذهبت إلى المطبخ، بينما كنت أجرُّ قدمي إلى سريري، وارتميت عليه فاقدة أي شعور بكل ما حولي، لم يزُرْني كابوسي إطلاقا، ولم أرَ الوجه المقيت الذي عهد ينتظر مني مجرد الغفوة، كنت نائمة بالفعل وأغط في نوم عميق، لا أحلام ولا فواصل، لا شيء يقف بيني وبين أن يرتاح جسدي المجهد، بعد ساعات طويلة استيقظت لأجد ثيابي قد بُدِّلت بمنامتي، وقد نزعت جواربي التي أتذكر أنني تكاسلت عن خلعها بالأمس، لابد أن أمي فعلت كل هذا، لكن كيف لم أشعر بها، لقد كان نومى قبل أمس فقط كارثي، أشعر بكل حركة، حتى لو حُرِّكَ مقعد بالصالون، كنت أشعر بالهدوء واليقظة

والنشاط، وكأنني بالأمس رميت ثقلًا كان دوما معلقا ورابضا على صدري، ارتديت ملابسي وناديت أمي التي حضرت إليَّ وقبلتني من رأسي، وكأنني كنت غائبة لعقود، بدت أمي على غير عادتها وكأنها هي الأخرى قررت التخلي عن الوجه الخشن الذي تعمدت ارتدائه طوال سنوات عديدة، أخبرتني أنها ذاهبة إلى مركز الإعانات لطلب سلفة أو مبلغ مالي كي أتمكن من ترتيب أمر سفرنا إلى القاهرة، كان عقلي غير منشغل بالأمر، أقصد أمر تدبير الأموال اللازمة، لكن بالطبع كان منشغلا جدا بأنني من المؤكد سأكون هناك بعد عدة أيام، دوما كنت لا أهتم بالوسائل، لكنني أهتم بتحقيق أمنياتي، والقاهرة والعودة لها كان أهم أمنياتي خلال عمري كله، أقصد أنني لا أريد الكذب على نفسي عندما أحدثها، أنا فتاة حالمة، لقد تخيلت للتو أن عمر سيكون في استقبالي بالمطار، وتخيلت هيئته وملابسه، وفكرت في كل شيء، ملابسي لون حقيبة يدي، هديتي التي تناسب لقاءنا سويا، أخرجني من كل هذا رنين هاتفي، كانت المتصلة هي راش، سألتني في نهمٍ حقيقي: "هل استطعت النوم؟ أريدك أن تقضي على كل شيء قد حدث مع الحاخام أمس"، تذكرت كلماته التي أخبرني بها أنه غير مسموح لي أن أقص أي شيء مما حدث، لكني كنت راغبة في لقاء أي شخص، وليكن هذا الشخص هو راش، قررت استغلال نهمها بالأمر، وطلبت منها مقابلتي في الحديقة المقابلة لمنزلها، وأني سأقص عليها كل شيء، هتفت في الجهة المقابلة: "حقًّا يا عايدة؟ أنا أحب تلك الأقاصيص"

تناولت كرتين من الكرواسو المحشو بالشكولاتة على عجل، ومن ثم غادرت الشقة بعد أن تركت ورقة جوار الصحن الممتلئ لأمي، أعلمها أني مع راش في الحديقة، حضرت راش إلى البارك من قبلي ووقفت بجوار درجاتها تتلفت برأسها يمينا ويسارا باحثة بعينها الزرقاء عني، وعندما ظهرت أمامها من نهاية الحي هتفت وكأنني لا أراها:

"عايدة أنا هنا"

أدركت أنها تشير إلى أن مكاننا المعتاد كان محجوزا بأسرة كاملة، زوج شاب وزوجة وحولهما طفلين، بينما هناك طفل صغير في عربة أطفال، استوقفني المشهد كثيرا، كانت الزوجة قريبة لي في ملامحها وسنها، وشردت للحظة في امري الخاص، متى ستأتي اللحظة التي أحظى فيها بأسرة مثلها؟ أمسكت راش بكتفي في غيظ:

"لقد تأخرتِ كان المكان فارغا منذ فترة"

"يمكننا السير سويًّا حتى ينصرفوا"

رمت راش درجاتها على الأرض أمام الطفلين، وكأنها بذلك تحجز المكان بعدهم، وانطلقنا نسير إلى جوار بعضنا بعض، وقفت راش فجأة في مواجهتي تتأمل وجهي وتنظر بإمعان إليه:

"عايدة، في وجهك أمر غريب اليوم يا صديقتي"

شعرت بالارتباك: "ماذا راش؟"

"لا تقلقي، أقصد أنتِ جميلة عن كل يوم رأيتك فيه"

ابتسمت

"هيا، لا تتهربي قصي عليَّ ما حدث"

"هل ستصدقين؟ الأمر كان خطيرا جدا". جذبتني راش من يدي وجلست على العشب لأفعل مثل ما فعلت تماما:

"ها هيا"

"في الحقيقة، أنا لا أذكر أي شيء، لقد فقدت الوعي بمجرد أن أغلق الحاخام الباب خلفه"

"لقد تعودت منك على الصراحة، لكن الآن أنا تعرضت إلى خداع، ولكن أنا موافقة جدا، المهم أنك الآن أفضل يا صديقتي". قالت كل هذا وقبلتني من وجنتي، ثم أردفت تقول:

"هل ناقشت مع أمك أمر السفر إلى مصر لتأجير الشقة؟"

"آه راش، لقد ذهبتْ الآن لتدبر أمر الأموال"

"وماذا عن عمر؟"

"عمر، ما زلتي تتذكريه؟"

"راش لا تنسى شيئا ابدا"

"لم أفعل ما اتفقنا عليه حتى الآن"

"أنتِ كسولة جدا، هاتِ هاتفك، هل ما زلت محتفظة بالصورة التي التقطتها لورقة من رسائله؟"

هززت رأسي بالتأكيد، وأمسكتْ راش الهاتف مني، وفتحت صفحة الفيس بوك التي اسمها سيلينا، ووضعت اسم عمر بالأعلى، وبدأت البحث، ظهر أكثر من ستين اسم بالعربية ومثلهم بالإنجليزية، وبدأت مراسلتهم فقط بإرسال الصورة لهم، أمضت وقتًا طويلًا، كدت أشعر بالملل عندما رفعت رأسها لتقول لي:

"أتممت الأمر"

كنت مشغولة بالخطوة التي تلي ذلك، هل سيكون عمر واحدا من ضمن من ظهروا في نتائج البحث؟ بدأت ردود عديدة تأتيني، كلها من أشخاص يحملون اسم عمر من عينة:

"أود التعرف أولا"

"كلام جميل"

"صورتك أحلى"

انتبهت أن صورة الصفحة الشخصية لـفتاة بذراع عارية، ونصف صدر مكشوف، وبدأت أضغط على زر الحظر مع كل إجابة ليس من بينها دليل على أنه عمر الذي أريده، انتفضت واقفة ومودعة راش لأعود إلى المنزل بوجه يكسوه مسحة حزن، كنا في وقت الظهيرة، ولم تعد أمي حتى الآن، انتابني قلق بالغ بخصوص تأخرها، وبدأت أنظر إلى الردود التي مازالت ترد لإشغال الوقت لا أكثر، كنت أفكر أن عمر الذي أريده سيرد فور إرسال تلك الصورة، انتبهت أن الموعد في القاهرة الآن قبيل الفجر،

ولو كان عمر لديه عمل في الصباح فلابد أنه يغط في نوم عميق، انفتح باب شقتنا، ودلفت أمي ويبدو على وجهها الإجهاد الشديد:

"لم أبرح مركز الإعانات حتى تحصلت على ما نريد"

وأشارت بصعوبة بعلامة النصر، كان الإجهاد الذي يحيط بها سببا في تركها إياي، لتنام ولو لفترة القيلولة، مما جعلني أشعر بالإحباط والرغبة في تمديد جسدي على سريري في غرفتي، ووضعت الهاتف جوار وسادتي، غفلت ساعة أو أكثر، وكان رنين رسالة واردة السبب في استيقاظي، نظرت إلى الهاتف لفتحها، وجدت الرد مثل الردود السابقة، قررت أن أغلق الهاتف وأكمل نومي، بينما شعرت بحركة أمي في المطبخ، لابد أنها تحضر الغداء، إذن لدي الوقت لأنام، وعندما ضغط على مفتاح غلق الهاتف تزامن معه صوت رسالة واردة، قلت لنفسي لا مزيد من السخف، سوف أغلقه، لكن شيئًا ما جعلني أحدث نفسي أن نظرة أخيرة للرسائل الواردة لن تضر، ففتحت الرسالة لأجد ردًا من كلمة واحدة:

"عايدة!"

(٢٥)
عايدة (١١)

كانت مفاجأة من الصعب على عقلي أن يستوعبها من الوهلة الأولى، ظللت ناظرة إلى شاشة الهاتف، بينما تستمر عيني على كلمة (عايدة)، كنت أشعر بالفرح الشديد والرهبة الشديدة بالحنين والشوق بمشاعر مختلطة ومتداخلة، أنا مرتبكة، يدي ترتعش وأنا ممسكة بالهاتف، احتجت أن أغمض عيني، أن أتنفس بطريقة سليمة، عمر هنا، يفصلني عنه شاشة الهاتف، إنه يكتب الآن:

"مَن سيلينا؟"

كتبت على مضض: "صديقتي"

"عايدة كيف أنت؟"

"بخير وأنت"

"عمر"

"نعم؟"

"سأعود إلى القاهرة قريبا"

كتبتها ولم أنتظر ردًّا. أغلقت الهاتف، شيء ما بداخلي يخبرني أن عمر في حالتي نفسها، لا يجد ما يقوله أو يتحدث فيه، آثرت الصمت حتى إشعار آخر، لطالما سكنت خيالنا أمور عديدة وعند تحقيقها لا تتحقق أبدا بالشكل

الذي كنا نراها عليه في مخيلتنا، أشياء كثيرة تخذلنا، أشياء كثيرة لا تطعن الألسن تنخرط، والمشاعر تتقيد بقيد الظروف. على كل حال، سعادتي بوجود عمر الآن لا تساوي أيةً سعادة عشتها للحظات قليلة، شعرت أنني الطفلة ذاتها التي تنتظر أن يضع يده في يدها من جديد، كنت أريد أن أقصَّ عليه كل شيء قد حدث في حياتي كلها منذ يوم فراقنا، ووجدتني أسأله فقط عن أخباره بشكل عام، كان يبدو عليه هو الآخر الارتباك، لأنه لم يرد في حينها. شرد عقلي، لربما كان يحادث فتاة أخرى، لذا لم يهتم بالرد عليَّ، تبا لكل الاحتمالات القاتلة، كيف أتصور أنه إلى الآن لم يتزوج؟ أو حتى لم يرتبط بأيَّة فتاة؟ كيف أتصور أنه يحيا إلى الآن على ذكرى طفلة أصغر منه تركته وتسببت أمها في إيذائها إيذاء عظيمًا؟ كيف أستطيع أن أعرف أنه مازال على العهد الذي لم يكتب، ومازال بطل القصة من وحي خيالاتي البريئة، كان على أن أنشغل بأمر ما آخر؛ لذا قررت الذهاب إلى منزل راش مرة أخرى، وأخبرت أمي أنني ربما سأتأخر قليلا، ومن ثم كنت بعد نصف ساعة أقف على عتبة باب منزلها، وكانت هي تستقبلني بالحفاوة المعهودة هذه المرة، كان المكان الذي جمعنا غرفتها الجانبية، وكانت أول مرة أمرُّ فيها من أمام جدتها راشيل وباب غرفتها مفتوح، كانت المرآة كما هي، وكانت الأشياء، أقصد المبخرة وبقايا الشمع، ثابتة في مكانها جميعا، مررت بسرعة خاطفة وأنا أضع يدي فوق حجاب رأسي إلى غرفة راش، كانت غرفة

مبهجة معلق عليها صور لأماكن أثرية كثيرة، منها القاهرة، وقفت أمام أحد الصور..

"راش، ماذا تسمين تلك المنطقة؟"

"إنها تسمى المعز في قلب القاهرة القديمة"

"سيكون على زيارتها في أثناء رحلتي إلى القاهرة"

"هل نويت بالفعل؟"

"لقد دبرت أمي أمر الأموال، وسأسافر في نهاية الأسبوع"

"حقًّا؟" قالتها بينهما واستطردت:

"وهل سيكون هناك أحد في استقبالك؟ أقصد هل تعرفتي إلى عمر؟"

"امم. تقريبا توصلت إليه وتحدثنا"

جذبت من يدي الهاتف:

"إذن أخبريني ما تحدثتما بشأنه" وجدت هاتفي مغلقًا:

"أووه! هروب جديد يا عايدة؟"

تحدثت معها كصديقة مخلصة، أخبرتها عن شكوكي عن ردوده المبهمة، عن كل شيء احتل صدري، لكنها أخبرتني بخبرة الفتاة المنطلقة، أن هذا كله متوقع، وأن الأمور ستأتي رويدا رويدا، وأن الأمر يحتاج لكثير كي أستطيع أن أتحدث معه، وأنا أعلم كل شيء عنه، طالبتني أن أكون شجاعة، وأتحدث معه كما أتحدث معها، وأنني حتما سأشعر إذا كان به شيء

من تغيير، وأن لا أستبق الأحكام ولا أصدر أي رأي بدون أن أفكر فيه، كانت نصائحها هي كل ما أحتاجه، ولذلك تشجعت وضغط على هاتفي لأفتحه، ولأجد رسائل عديدة من عمر يخبرني أنه بخير أكثر من أي وقت مضى، وأنه حتما ينتظرني إن لم يكن هناك أحد في رفقتي أو في استقبالي، ثم بدأ يكتب كثيرًا عنه، أخبرني بموت والدته منذ فترة طويلة، ولقد حزنت بالفعل، وتخيلت كيف أصبح من دونها، كدت أرسل له وأنا في منزل راش، ثم تنبهت إلى أمر هام:

"أين سأسكن طوال فترة مكوثي بالقاهرة؟"

"وكيف أستطيع إيجار شقتي؟"

ضحكت راش من فرط سذاجتي، وأمسكت الهاتف الخاص بي مرة أخرى تهزه:

"هنا يكمن كل شيء، يمكنك البحث عن أسعار الفنادق في القاهرة، بل والحجز أون لاين، ويمكنك البحث عن مستأجر أو شركات تقوم بمثل تلك الخدمات"

احتضنت راش وقبلتها وأنا أنوي المغادرة:

"أنتِ حقا صديقة رائعة"

مرت الأيام بعد ذلك، وقد تخلى عمر عن ردوده المقتضبة، بدأنا رحلة تعارف من جديد، ماذا يقرأ؟ ماذا يسمع؟ أصبحت الساعات التي نقضيها سويا داخل المحادثة كأننا نسكن البيت نفسه، كنت سأقدم الشكر لمخترع

هذا التطبيق لولا ما حدث بعد ذلك. المهم، أصبحت أيامي بها عمر كل أوقاتي، بدأنا نسرد يومياتنا، ونقصّ على بعض حكايات كنا قد نسيناها، كان يتقبل كل شيء مني، كان يستمع أكثر مما يتحدث، وكم كان هذا مريحًا بالنسبة لي، طلب مني صورة لي على استحياء وأرسلتها له، وطلبت منه أنا الأخرى صورة له، لكني حددت له مكانا يتصور به، كان المكان هو شارع المعز بالقاهرة القديمة، أرسلها في المساء، بينما أخبرني أنه كان في رفقة صديقه وجاره محمود، أخبرني عنه كثيرًا، وكيف كان سببا في أنه وجد عملًا محترمًا، كانت سعادتي لا توصف، وهو يرسل لي الصورة، أخيرا، سأرى عمر. لم تتغير ملامح الطفل بداخله، أخبرني أنه أوقف أحد المارة ليلتقطها مع صديقه محمود، لكن محمود لم يظهر في الصورة أبدا. ظننت وقتها أنه ربما تركه أو رفض أن يتصور، لم أعلق على الأمر كله، حتى أتت ليلة تحضير الحقائب للسفر إلى القاهرة، كنت قد استخدمت صفحة الفيس بوك في حجز غرفتين بفندق متوسط، وبحثت عن عدة شركات تعمل في إيجار الشقق المفروشة بمنطقة المعادي، وقد تواصلت مع أول نتيجة ظهرت لي، شركة الأعماق للتأجير والتمليك، تحدثت مع ممثل عنها يدير صفحتها على الفيس بوك، وأخبرته بمكان شقتي وبرغبتي في إيجارها، كان في انتظاري بالقاهرة حتى نتمم الاتفاق. أنا أتغير وأيامي القادمة تبدو أنها قادمة من الماضي السعيد من المنطقة الجميلة التي يحمل كل واحد فينا ذكرياتها. في الصباح أرسلت لعمر لأؤكد عليه موعد وصول الطائرة، حتى يكون في

انتظاري، فكرت ألف مرة فيما سأرتديه، وما سأبدو عليه عندما أراه أمامي رأي العين، كيف سيراني، تحدثنا كثيرا من خلف الشاشات، رآني في مجرد صور ليس بها شعور أو حركة، الآن سيكون عليه أن يقف أمامي، وأنا أقف أمامه، سألمح بين جنبات عينية حبًّا أو حنينا أو عدم اهتمام. في الطائرة بدأت أفرك كفي من القلق، كنت أشعر أن أمي تشعر بكل ما يحدث بداخلي، كانت من وقت لآخر تضع يدها على يدي لتهدئ من روعي، وعندما أعلن الطيار وصول الطائرة، نظرت إلى النافذة وكأنني سأجد عمر أسفل السلم المتدلي منها، لا في صالة الاستقبال، لكن ما حدث فعلا أنني أبدا لم ألتقِ به في ذلك اليوم، لا أسفل الطائرة ولا في صالة الاستقبال، وعندما اكتشفت ذلك، وضعت نظارتي السوداء أمام عيني، وحملت حقائبي وحقائب أمي على عجلة حقائب إلى الخارج لأوقف تاكسي يقلنا إلى الفندق، كنت صامتة ومصدومة أرغب في البكاء، بل أرغب في العودة إلى لندن.

(٢٦)
عمر (٩)

عايدة لن تفهم أبدا سبب عدم ذهابي إلى استقبالها في المطار، كيف تعي أنني في أسوأ حالاتي، نعم، أصبحت الآن غير متزن أبدا، مثلما كنت يوم حدثتني، كنت أصلي الفجر مع محمود جاري وصديقي ورفيقي في سكني، ولم أشغل بالي أبدا بشأن الرسالة التي أتت من فتاة تدعى سيلينا، قبل الظهيرة في أثناء ما كنت في العمل، فتحت الرسالة كدت أسقط من فرط فرحتي، عايدة أقسم لنفسي إنها هي، لا أحد يمتلك هذا الدفتر سواها، ها هي قد أرسلت صورة منه، تنتظر التأكد أنني هو من تريد أن تعرفه، بالطبع كتبت لها بأيدٍ مرتعشة فقط "عايدة!". لم أحتمل البقاء في العمل وعودته إلى المنزل، لأجلس وحيدا منتظرا ردها على رسالتي، ومنتظرا عودة محمود الذي تفاجأ بوجودي وشعر بأنني ربما تركت العمل بسبب أي خلاف ما، طمأنته أن هناك أمرا قد حدث ولم أتحمل أن أبقى بسببه هناك، كنت أريد أن أخبر أي شخص عن عايدة، هذه هي المرة الأولى التي سأتحدث فيها عنها، وهي التي أصبحت قريبة بمسافة مليمتر، هو قدر وضع يدي على اسم سيلينا في هاتفي، أخبرت محمود عنها وعن علاقتي بها، كان فرحا أكثر مني، واحتضنته لصدق إحساسه وشعوره بي، وبدأت عايدة تتحدث إليَّ،

أصبحنا نتحدث بشكل يومي في كل شيء، وأي شيء، كان هناك فرصة لأقص عليها ما حدث لي في حياتي، دون أن أخبرها بأمر أنني أمارس النصب والاحتيال وسوء الخلق فترة، كنت أريد أن أحافظ على صورتي المثلى لديها، حتى أخبرتني أنها عائدة إلى القاهرة، وسألتها عن كل شيء؛ أين ستسكن؟ من سيرافقها؟ كل شيء. أخبرتني هي أمرا غريبا عن أسرة تعرفت إليها هناك، وكانوا السبب في أنهم استطاعوا إنهاء المشكلة الخاصة بشقتها في المعادي، أقصد الشقة التي ولدت فيها، لم تخبرني عن تفاصيل ما فعلوه، لكن كان خبر عودتها ممتزجا أساسا برغبتها في تأجير الشقة، وهذا يعني انتهاء كابوس الشر الموجود فيها، كاد محمود يطير من الفرح عندما أخبرته بذلك، وكأنه ينتمي إلى الشقة أكثر مني، في المساء وعندما أغفلت للنوم، بينما كان محمود يتهيأ للخروج، سألته إلى أين الوقت متأخر:

"لدي أمر هام سأقوم به الآن"

"إذن لا تتأخر وابقى على اتصال"

قُلتها وشددت الغطاء على وجهي، ورحت في سبات عميق، وهنا رأيتني أسير في أحد الشوارع، وهناك كلب ضخم ينظر إليَّ، مررت من أمامه وقد سرت في جسدي قشعريرة، ووجدته يسير خلفي وقد كان فمه يرمي نقاطًا من دماء على الأرض خلفي، كان صوته قوي، وكنت أنا أرتعش من قدمي، أحاول السير صوب الحي الذي أسكنه، وما أن دلفت إلى الشارع، وجدته توقف هناك، وبدأ ينبح بصوت غليظ، كل مرة ينبح

فيها كان قلبي يقفز من صدري، إلى أن دخلت إلى العمارة التي أسكنها، وانقطعت الكهرباء فجأة، وجدتني أتحسس درابزين السلم، وأقف لأخرج مفتاحي، وجدت عيونًا حمراء متخذة شكلا دائريًّا تنظر إليَّ، أسعفني هاتفي فأضأت، فرأيتها قطه بدأت تموء بفمها صوب شيء ملتف حوله عدة قطط، كان الشيء عندما قربت منه كشاف هاتفي، هو رأس محمود صديقي، وقد جوف من أعلى، شهقت صارخا:

"محمود!"

انتبهت إلى أنه كابوس مقيت كباقي الكوابيس التي كنت أراها من فترة، وكانت بطلتها عايدة، أضأت الأباجورة التي إلى جواري، ونظرت في هاتفي لأجد الوقت قبيل الفجر، كانت عايدة قد أرسلت صورة للتذكرة الخاصة بمواعيد وصولها، وكذلك تأكيد بصالة الوصول، وبضرورة انتظارها، لم أستطع الرد عليها، كنت قلقا بشدة بشأن محمود، واستيقظت بعد أن كنت نائما، وظللت حتى سمعت أذان الفجر، خرجت للصلاة متمنيا نفسي بلحاق محمود بي في الصلاة، انتهيت وتلفت إلى كل صوب قلم أجده، كان الصباح قد بدأ يصبغ السماء بضيائه، ونظرت أمام العمارة لأجد سيارة محمود مركونة تحتها، صعدت إلى الشقة على أمل أن أجده في انتظاري، لكنني لم أجده، بحثت عنه في كل شبر فيها، ناديته أكثر من مرة إلى أن دق الباب، فعلمت أنه هو على الرغم من اختلاف الدقة المميزة، فتحت الباب لأجد صاحب العمارة، لم أره منذ زمن، سلَّم عليَّ وطلب الدخول

للتحدث معي، أخبرني أن السباك قد أنهى ما طلبته منه، ومحل سكني بالأعلى جاهز للسكن من جديد، وأنه على ترك تلك الشقة، فأخبرته أنني في انتظار محمود كي يعود، فسألني في استغراب:

"ومن محمود؟"

قلت له: "محمود صاحب تلك الشقة ورفيقي هنا!"

رفع الرجل حاجبه:

"وهل تستقبل أصدقاءك في شقة منحتك إياها فترة إصلاحات محل سكنك؟!"

"هو ليس صديقي، بل صاحب تلك الشقة"

"هذه الشقة يا بني كانت للشيخ محمود المجروش، وقد مات منذ سنوات لا تعد، وهي كانت مغلقة قبل أن أخبرك بأمرها وأطلب منك سكنها" صاح الرجل!

"لا حول ولا قوة الا بالله! إذن حديث الجيران عنك صحيح!"

"أي حديث، محمود موجود كان يبيت إلى جواري هنا كل ليلة، وكان... عفوا! ماذا يقول الجيران عني؟"

"يقولون إنك ربما ممسوس أو مجنون، أحوالك عجيبة وغريبة، يرونك تغادر الشقة وتتحدث إلى أحدهم بداخلها، ومرات رأوك تتحدث إلى الهواء في الشارع حتى في المسجد القريب"

"أنا لا أتحدث إلى الهواء، أتحدث إلى محمود وسيارته هناك بالأسفل"

"أعرفها، قد أكلها الصدأ منذ سنوات، ولم تتحرك من أسفل من قبل أن تسكن أنت هنا ووالدتك"

شعرت بجفاف حلقي ودوار شديد، جعلني أسقط فاقدا الوعى، مما دفع الرجل لطلب الإسعاف، ولم أفق سوى في المساء، كانت عايدة قد وصلت بالتأكيد، وأحزنها عدم حضوري، وعندما أفقت حاولت أن أرسل لها، لكن يدي خذلتني، تحاملت على نفسي، وتركت المستشفى إلى مقر عملي، لأسأل صاحبه عن وساطة محمود لي بالعمل هناك، أخبرني الرجل أنه لم يرَ أحدًا معي، وكل ما في الأمر أنني تقدمت للعمل، ورأى أني أصلح له. كنت مثل التائه والشريد، يطوف الشوارع سيرا على الأقدام، أبحث عن محمود في كل شخص أراه، تذكرت ما ظننتها مزحة من عايدة عندما طلبت مني إرسال صورة لي، فأرسلت لها صورة تجمعني بمحمود، وتحدثت هي أنها لا تراه جواري، ظننت أنه إطراء على وجودي في الصورة، فتحت معرض الصور وفتحت كل الصور في هذا اليوم، لم أجد أثرا لمحمود، أحقا أنا ممسوس أم جننت؟ لا أحد يصدق أنه كان معي في كل لحظة كنا نتحدث ونحيا معا، حتى عايدة، ماذا سأفعل لها بغيابي عن استقبالها، قررت أن أحادثها. وأنا على باب الفندق، ظللت قرابة الساعة أنتظر ردها، أخيرا، ردت عليَّ واستقبلتني في بهو الفندق هي ووالدتها، قبلت يد والدتها، وكانت المرة الأولى التي ألمس فيها يد عايدة للمصافحة، كانت ملامحها غاضبة، لكنها لم ترد إفساد أول لقاء بعد سنوات عديدة، اطمأننت على

صحة والدتها كي أنزع أي شعور داخلها بعدم تقبل أو حقد من ناحيتي، وتركتهم للاسترخاء لأعود إلى غرفتي بالأعلى وأمر أمام الشقة التي أغلقها صاحب المنزل بقفل غليظ، لأقرأ اليافطة التي إلى جوار باب الشيخ محمود المجروش، كل شيء يشير إلى أن محمود كان وهما، ربما خلقه خيالٌ جامح ورغبة في التغيير، ربما هو كذلك، أقنعت نفسي بالأمر لأنام بعد أن أبرمت اتفاقًا بيني وبين عايدة أن أقابلها في الصباح، لأريها القاهرة. نمت واستسلمت، أتعبت نفسي قبل جسدي، أرى الكابوس نفسه الذي فيه رأس محمود مقطوعة، لأقوم مفزوعا من جديد حتى الصباح.

في الصباح، التقيت بعايدة من جديد، ولمست كف يدها للمرة الثانية، وأوقفت تاكسي لزيارة الأهرامات والمتاحف، وفي الظهيرة كنت أنا وهي في رحلة نيلية إلى القناطر، وفي المساء أخذتها إلى كافيه شهير بالقرب من الفندق، كنت أنظر إلى يدها طوال الوقت، وأرغب في لمسها مثلما كنا في الماضي، لو تعلم أنني أريد البكاء معها لبكيت، لكنني أعلم أنها لن تصدقني في أي شيء بخصوص محمود، لذا أصرَّت التحدث عن كل شيء في حياتنا، عن رغباتها المستقبلية، عن أحلامها، لم يكن من بينها أن تكون لي أو أن أكون لها، تغيرت عايدة، وتغيرت أنا الآخر، شعرت بميثاق غليظ بيني وبينها، عليَّ البقاء حتى لو لم تجمعنا الحياة. في اليوم التالي، طلبت منى أن نركب سويًّا المترو، وكنت خائفًا من أن تتعرض لأي مضايقات، كنت أحيطها بيدي إلى جوار باب مغلق، لم نجد مكانا للجلوس، لكنها كانت

مستمتعة، كانت تشعر أن عمر مصدر أمانها إلى جوارها، عمر الذي لم يحتج أكثر من وجودها إلى جواره الآن، أخبرتها عن منطقة العتبة والموسكي، فأصرت على النزول هناك، كنت أخشى الازدحام، أخشى المشكلات مع أجنبية في منطقة شعبية، توقفت عند بائع حقائب، واختارت واحدة لها، وعندما كنا نختار اللون، باعها إلى غيرها، ثارت ثائرتها تكيل له الكلمات، كان عايدة تتحدث وكأنها فتاة من شبرا، واعتذر البائع لها، وأرسل في طلب واحدة حسب طلبها من بائع آخر، نظرت إليَّ وهي في قمة غضبها:

"هل أرعبتك؟"

رفعت حاجبي لأقول لها:

"هل كانت تسكن شبرا لندن!"

ضربت كفها، وأطلت أنا بقاء كفي في يدها، سحبتها بنعومة لتقول لي:

"عمر، أريد العودة إلى الفندق" أوقفت تاكسي ليقلها، بينما أخبرتها أني سأذهب إلى مكان سكني بالمترو.

(٢٧)
عمر (١٠)

في اليوم التالي، كان عليَّ أن أحضر اتفاق عايدة مع الشركة التي تفاوضت معها بشأن إيجار الشقة، وكان علينا أن نذهب سويًّا إلى الشقة في رفقة أحد مسئولي الشركة، أخبرنا هذا المرافق أنهم شركة لها تاريخ عريق في منطقة المعادي، وأن كل الشقق في العمارة أصبحت تستأجر بمعرفتهم، بل وبعض الفيلات والأماكن في محيطها.

كانت المرة الأولى التي أعود فيها إلى هنا، عندما وقفنا قرب الباب، شعرت بالدوار أيضا، شيء ما يخنقني، لا أريد أن أراها، هتفت في غضب، تفهمت عايدة الأمر وطلبت مني الجلوس في الأسفل، عندما جلست بالقرب من سيارة الشركة، قرأت اسمها الكامل: "اعماق للأملاك والتأجير"

كان البيدق مثيرا جدا، عبارة عن رأس أسود يرتدي شيئا، كنت أحاول أن أسلي عقلي بأي أمر، بينما كان صوت وقع أقدام عايدة وهذا المرافق على السلم لمدة ساعة، لم يصعد أحد إلى العمارة سوانا، لم يكن هناك أي غسيل منشور في شرفة الشقة، ربما لا شيء سوى أعمال عقلي فقط. عندما انفردت بعايدة، سألتها عن الاتفاق، أخبرتني أنهم يقومون بتأجيرها للأجانب فقط بالليلة، وهذا يضمن لها دخلا ممتازا، وأنهم يقومون بتعيين

بواب أسفل العمارة بغرض خدمة هؤلاء الأجانب، لم أرتح للأمر، لكن هذا كله ليس شأني، كانت العطلة التي تحصلت عليها من عملي قد انتهت، وأصبحت أتحدث إلى عادة كل ليلة عبر التطبيقات، مرات كانت تطلب مرافقتي إلى مكان ما، لكن لم أستطع فعل ذلك، ذهبت إلى المعز وحدها، واشترت من هناك أشياء كهدايا تحملها إلى صديقة لها، أخبرتني كل هذا وأنا أشعر أننا بدأنا الابتعاد عن بعضنا بعضا، ربما لأنني حاولت الانشغال في عملي؛ هربا من فكرة أنها ستغادر ونفترق مرة أخرى حتى جاءتني رسالتها الأخيرة:

"عمر، ضروري أقابلك غدا؛ لأني سأسافر في المساء.."

شعرت بضربات قلبي تتوالى، عايدة ستذهب مرة أخرى على الرغم من معرفتي الأمر، لكن عندما وضعت في الحدث تبدل كل شيء بداخلي فكتبت لها:

"انتظريني في الكافية القريب من الفندق"

ارتديت ملابسي على عجل وتقابلنا، كانت لحظات بطيئة ومملة، أريد أن أتحدث في أمور كثيرة، ولا أنطق، أستمع إليها وهي تخبرني أنها تحدثت مع صديقتها راش عني وعن شكوكي أن العمارة غير مسكونة، وأنه كان يمكننا الاتفاق مع سمسار آخر من ساكني المنطقة، وأخبرتني أنها تقص عليها كل شيء بخصوص ما كنت عازما في نفسي على التواصل مع الفتاة

ألا يراني في عيون عايدة بعيدا عني، لو كان محمود موجودا لفعلت عايدة الشيء نفسه مع محمود، ليس سوى شخص اقترحه عقلي عليَّ.

طالت جلستنا سويًّا على الرغم من الصمت الذي خيم على كلينا، ساعات بسيطة وستعود عايدة إلى أبعد مكان عني، ساعات فقط تفصلنا عن عودتي إلى ألمي ووحدتي ومرارة الحين مرة أخرى. حاولت أن أستجمع قواي وأنا أهب نفسي أن أعترف لها بالحب، نعم، أشعر أنه مهما كان ردها سأكون قد حسمت أمري معها، ظللت أفكر في المؤجلات دوما، بعض الكلام يظل حبيسا. وأنا كل كلامي حبيس في حضرتها، لذا أغمضت عيني ومدت يدي بلطف صوب يدها، وفتحتها لأقول:

"عايدة، أنا.." قطع حديثي آخر شخص كنت أظن أن ألتقي به، إنها هي الفتاة التي قضيت معها ليلة على سطح العمارة التي أسكنها؛ شعرت بالارتباك، واحمرَّ وجهي عندما نادتني: "عمورة!". ثم مالت عليَّ بصدرها نصف العاري تريد أن تقبلني، ابتعدت قليلا وأنا لا أقوى على النطق، نظرت هي شرقا إلى عايدة لتقول:

"ذوقك أصبح عاليًا، بكم استأجرتها لتلك الليلة؟!"

حاولت النطق، لكن عايدة سحبت حقيبتها وغادرت في ثوانٍ بعدما امتلأت عيناها بدموع مخزنة، لم أرها وانقطع كل أمل يخص قصتنا معا..

الأيام التي تلت تلك اللحظة رتيبة وقاتلة، كنت أشعر بالملل من كل شيء، وتوالت الكوابيس خلفي كشيطان مريد يريد مني الانتحار، تكررت أحلامي بعايدة، والأفاعي تحيط بها وهي تصرخ، وتكررت أحلامي بمحمود ورقبته المقطوعة، لم أجرؤ أبدا على كتابة أي رسالة إلى عايدة على الرغم من سهري لوقت متأخر، وعلى الرغم من رؤيتي لها أون لاين دوما، كانت إشعارات وجودها في الحياة سببا وحيدا لي يخبرني أنها بخير، وأنها تحاول أن تنساني، كان لديها كل الحق من البداية، وهناك أمور تخبرنا أنه لامجال لأن نكون سويًّا للأبد، من البداية وأنا وهي لم نلتقِ، ليتنا فعلا لم نلتقِ، وظللت أنا عمر الذي كان يحيا في مخيلتها، وظللت على صورته البريئة أمامها، ربما كان من الأفضل فعلا أننا لم نلتقِ، ربما أرسل الله لي الإشارات العديدة، وأرسل لها هي الأخرى، كنت لا ألتزم بموعد معها، لم أكن على المستوى المطلوب، أتمنى عايدة كما تمنيت، لكنني لم أكن مؤهلا للقائها. تناسيت الماضي المرير الذي صنعته بنفسي، وتناسيت أنه سيأتي اليوم الذي يظهر جليا لها، لم أضع في حساباتي أنه سيأتي بتلك السرعة وبهذه الطريقة، أصبحت خائنا في عينها، أصبحت ناقضا عهدا أبرَمَتْهُ عيوننا وقلوبنا، وأنا الآن نادم؛ أحيا الحياة كلها على هامش منها فقط، لم أعد أهتم بالعمل وبالمعيشة وبأي شيء، أصابني الاكتئاب المزمن، وطالت لحيتي قليلا، وبدأ جسمي ينحف بشكل واضح، كنت أبكيها وحدي، وأبكي ما وصلت إليه حالتي، حتى أتى اليوم الذي وجدت الشرطة تقف على باب

غرفتي. فكرت في كل ما صنعته طوال حياتي، في كل شخص استطعت خداعه، وأن الأوقات العصيبة تأتي متوالية، لم أحاول الهرب أو التملص من الفرقة التي حضرت إلى الغرفة، طلبت منهم ارتداء ملابسي، عليَّ أن أذهب معهم في هدوء، بينما أتصور أن من بين الجيران والأشخاص الملتفون حول عربة الشرطة، عايدة تقف بعيدا تبكيني وتبكي ما آلت إليه حياتي. هنا في قسم شرطة المعادي، أجلس في غرفة مكتب يعلوها لوحة خشبية مزينة باسم عقيد حاتم التهامي، ظللت بداخلها أكثر من ساعة، حتى إنني ظننت أنهم نسوني في الداخل، وحمدت الله أنهم لم يرموا بي داخل الحجز مع القتلة والمجرمين، وفجأة انفتح الباب، ليدخل عدد من الضباط ويسألني أكبرهم رتبة:

"أنت عمر ماجد؟"

"نعم يا فندم"

"ما علاقتك بالمدعوة عايدة هاشم؟"

إذن الأمر يتعلق بعايدة، ماذا حدث!

"قريبتي، هل حدث لها مكروه؟"

"باختصار، نحن نريد منك استدعاءها للعودة إلى هنا في أسرع وقت"

"لماذا؟"

"لدينا جريمة حدثت في شقتها بالمعادي هنا، ولابد من أخذ أقوالها"

"جريمة قتل أم سرقة أم ماذا؟"

يمكنك قراءة هذا الخبر، فقد نشرته الجريدة الرسمية في عددها الصادر اليوم:

"حريق هائل في شقة بعقار بالمعادي"

"حريق يلتهم محتويات شقة بمنطقة المعادي، ويتسبب في موت واحتراق جثتين لأجنبيين"

كتب قسم التحقيقات: "في مساء ليلة أمس، انتفضت قوات شرطة المعادي والحماية المدنية إثر بلاغ من أحد سكان إحدى العمائر القديمة، يخبرهم بوجود حريق هائل داخل شقة بالعمارة التي لا يتواجد بها سكان منذ زمن، والمعاينة الأولية تبين أن الحريق قد تسبب في التهام محتويات الشقة، وتسبب في مقتل وحرق شخصين أجنبيين، وأن الجثث المتحفظ عليها لرجل وفتاة، تبين ذلك من العثور على بعض الأوراق التي تخصهم، بينما كشفت المعاينة التي أجرتها النيابة في ساعة متقدمة من صباح اليوم، قد كشفت أن الجدران الخاصة بالشقة، قد امتلأت على آخرها برموز مكتوبة بالألوان الحمراء والسوداء، مما يشير لممارسة الأشخاص الساكنين بها طقوس الشعوذة والمجون، هذا وقد استدلت الشرطة على أن الشقة مؤجرة من الباطن لهما عن طريق سيدة تمتلكها، وجارٍ اتخاذ الإجراءات بخصوصها"

رفعت عيني لأنظر إلى السيد العقيد:

"لكن عايدة ليس لها أي ذنب، هناك شركة تتولى أمور العمارة كلها!"

(٢٨)
عايدة (١٢)

كنت غاضبة وبشدة، وشعرت أمي بذلك عندما عدت تلك الليلة إلى الفندق، كنت أشعر منذ اليوم الأول الذي هبطت بنا الطائرة في القاهرة، وعندما اكتشفت أن عمر لا يهتم بأمر استقبالي، الآن علمت ما الذي جعله لم يحضر، لابد أنه كان يقضي ليلة سعيدة في أحضان واحدة من تلك العاهرات، مثل التي تعرفت إليه في أثناء ما كان يجلس بالقرب مني، بل وظنت أنني مثلها، لم يكن عمر سوى رجل كاذب، لقد أتيت إلى هنا وكنت أرسم في مخيلتي كيف سيكون هذا اللقاء الأول، كنت مفرطة في خيالاتي لدرجة أنني عندما مررت من صالة الاستقبال، نظرت في وجوه الصبية في المرر، وكأنني سأجد عمر الذي أعرفه تمام المعرفة، مازال هو الطفل نفسه، شعرت بخيبة الأمل عدة مرات خلال تلك الرحلة، وكل تلك الخيبات كان سببها المؤكد هو عمر، كدت أن أتقبل أنه غير دقيق في مواعدته لي، أو أنه يوفي دوما بما يعد، كنت أرجع تلك الأمور كلها إلى انشغاله، عمله، ظروفه النفسية والصحية، عمر يعاني، هذا ما كنت أشعر به منذ أن رأيته في بهو الفندق، فطنت إلى ذلك، لم يكن مهندم الثياب كمهندس أو حتى حليق الذقن، وكنت ألاحظ أن أظافره طويلة بعض الشيء، وأسنانه مالت

للاصفرار، وعلى الرغم من ذلك ظل هذا المسخ الذي كان أمامي به جزء من عمر، كانت عيناه كما هما، فيهما النهم بي نفسه، كان يقف إلى جواري في عربة المترو، وأنا أحاول التعود على الصمود واقفة، كان يحيطني بيده، هي اليد نفسها التي كنت أحلم باليوم الذي أشبك أصابعي بأصابعها، لكن الآن علمت كل شيء، عمر خائن، واستطاع أن يمثل الدور الذي رسمه عليَّ منذ وصولي، كل ما كان بيننا خلال تلك الأيام وهم اختلقه عقلي، وساعد فيه قدرة عمر على الاحتيال، كدت أصرخ فيه ذات يوم، لماذا لا يخبرني أنه يحبني؟ كنت أظن أنه يخشى مصارحتي أو ربما يحاول تدبير الأمر في عقله، كنت كما أنا من البداية ساذجة وغبية، وكل شيء كان هو، بينما أنا أفكر في كل هذا، يتركني كي يلوذ بأحضان مرأة أخرى، كان يكذب ويتحجج، وما أكثر الحجج التي سردها عليَّ وصدقتها أنا من فرط طيبتي.

عندما تحركت الطائرة بنا، نظرت لمرة أخيرة من النافذة، ليست هذه المرة تشبه السابقة أبدا، كنت أتصور أنه ربما يسكن عمر أحد العمائر بالأسفل، ربما يقف في شرفته ناظرا إلى الطائرة، أما الآن، أنا على يقين أنه ربما ليس لديه وقت لفتاة بريئة مثلي، وربما هو في ذات الوقت، ينظر إلى مفاتن إحداهن في جو محاط بالظلمة والقذارة الذي أصبح يحيا بهما، مستنقع بذيء، لاحت من عيني دمعة لم أستطع إيقافها، والطائرة ترتفع، سألتني أمي لكنني بكيت أكثر دون أن أتكلم، ووضعت رأسي على صدرها وأنا أبوح لها بصوت مبحوح واهن:

"لن نعود إلى هنا مرة أخرى"

الآن فقط، علمت ما كانت تريده لي أمي منذ غربتنا الأولى، أن أنسى كل شيء، ليست هذه مدينتي، وليس لدي بها شيء يحبني، هناك في لندن عملي ودراستي ومنزلي وصديقتي راش، وإلى جواري دوما أمي، لذا لقد قررت ألا أعود أبدا، وحمدت الله على أن الشركة التي اتفقت معها على إيجار الشقة سترسل الأموال في هيئة حوالات على عنواني هناك عدة مرات على مدار العام، كنت أشعر بأنني أريد أن أخبر أي شخص غير أمي عن ألمي النفسي جراء ما حدث من عمر، لذا فكرت في أنني سأقوم بزيارة راش أو ألتقيها في الحديقة المقابلة لمنزلهم، مكاننا المفضل، تنبهت أن راش لم ترسل لي أي شيء منذ أخبرتها أنني نتقابل أنا وعمر، قبيل سفري في الكافية المقابل للفندق، وتعذر عليَّ أن أرسل لها، ونحن معلقون في السماء، رفعت رأسي عن صدر أمي، وأغمضت عيني مستسلمة للوهن وللكسل، حتى حطت الطائرة في مطار لندن، ها هي أضواء مدينتي الحقيقية، أتساءل من جديد، شيء ما كان يخبرني أني كاذبة ومدعية فما شعرت به يوم أخبرت عمر برغبتي بتناول الفول المدمس من عربة بالشارع، والألفة التي شعرت بها، لم أشعر بكل هذا طوال سنوات عمري هنا، هناك في ضريح الحسين، وتجمع الناس في الأسواق الكبيرة، كنت أشعر بالأمان على الرغم من ذهابي وحدي دون عمر، شيء ما في داخلي يريد ألا يصدق، كذبت، لقد علمت الآن لماذا

تفقدنا الغربة، تفقدنا الانتماء، أن تشعر أنك جزء من شيء أصيل، هذا ما حدث لنا، اقتلعنا قلعا من هويتنا، وأصبحنا كأننا شردا لا مأوى لهم.

اصطحبت أمي إلى المنزل وانطلقت إلى غرفتي لإرسال رسالتي المؤجلة لراش، لكن تعجبت من أنني أصبحت على قوائم الحظر لديها، هناك خطأ مؤكد، أمسكت هاتفي لأتصل بها، لكن خدمة العملاء تخبرني أنه رقم غير صحيح، شعرت برغبتي في الذهاب إلى منزل راش الآن، لكن أمي منعتني بحجة أنني متعبة وعليَّ الارتياح حتى الصباح، وتحت أثر رغبتها وإلحاحها وافقت، ووجدت عمر موجودا أون لاين في الناحية الأخرى، لم أجرؤ أن أكتب له، ولم يفعل هو الآخر، لكن وجوده نفسه جعلني أشعر بشيء له لذته، وحاولت مرارا طوال الليل الاتصال براش، تُرى ماذا حدث لها؟

في الصباح ذهبت إلى الجامعة إذ إنه قد فاتتني عديد من المحاضرات، ثم عرجت على المستشفى القريب الذي تتدرب به والذي أخبرتني راش أنها تعرفني لأنها تعمل ممرضة فيه، كان عليَّ أن أسأل رئيسة قسم التمريض التي نظرت إليَّ شاردة:

"أيَّة راشيل تقصدين؟ ليس لدينا سوى راشيل واحدة هنا وهي أنا"

"لا، آسفة سيدتي، لكن الأخرى في سني، اسمها راشيل بنيامين، والدها طيار وهي تلقب براش"

"هذه قائمة بكل طاقم التمريض هنا، ليس فيهم أيَّة راشيل سوى أنا، يمكنك فحصها بنفسك"

نظرت في القائمة التي كانت ممتلئة بالصور والأسماء، ثم رفعت رأسي مع آخر ورقة:

"مستحيل"

كان هاتفي يدق برقم صبي التوصيل في متجر الورد، لابد أنه يطمئن على وصولي، وعلى جاهزيتي للعودة للعمل، أخبرته أنني بخير وأني أحتاج فقط يومين للراحة ثم العودة للعمل، وافق على مضض وعلى اتفاق بيننا أن أعوضه ماديًّا من راتبي، كان عليَّ ألا أذهب إلى أي مكان سوى منزل راش، وبالفعل أوقفت سيارة أجرة، وأنزلتني أمام الباب الحديدي الذي كان مغلقًا بشكل غريب، لم تحدث ولا مرة أنني جئت إلى هنا ووجدته مغلقا هكذا، كان دائما مفتوحا على مصراعيه، حاولت أن أقوم بدفعه ولم يستجب سوى بعد عدة محاولات، وجدت دراجة راش على العشب الأصفر كما تضعها دوما، وبدأت دق الجرس أكثر من مرة، مما دفعني للالتفاف حول المنزل والنظر إلى الصالون من خلال الزجاج المطل على الحديقة، كان كل شيء غير موجود، لا ستائر لا مقاعد لا شيء، ورأيت المقعد المتحرك الخاص بالجدة راشيل خاليًا ووحيدا وسط الصالون، ووجدت يدا قد وضعت على كتفي ليرتجف كل جسدي:

"ماذا تفعلين هنا يا فتاة؟"

كان الصوت لرجل كبير في السن، مد يده مصافحا إياي ومعلنا عن اسمه وأنه صاحب هذا العقار:

"كنت أسأل عن صديقتي راش، وجدتها ووالدها السيد بنيامين"

"لا أحد يسكن هنا يا عزيزتي، إنه منزلي وقد استأجره لفترة إحدى الجمعيات الخيرية، وقد انتهى تعاقدهم معه أمس، حملوا أمتعتهم ورحلوا."

"ترى أين ذهبوا؟"

"لا علم لي، هل ترغبين في استئجار المنزل؟"

لم أرد، وسرت نحو دراجة راش التي تغطيها الأعشاب الصفراء، وانتبهت إلى أن الرجل يحمل في يده لافتة خشبية كتب عليها للإيجار، يبدو أنه علقها على الباب، وعندما دفعته طارت في الهواء، كنت أشعر بالدوار والقلق وكل شيء، مشاعر متداخلة، أكانت راش وهم اخترعه عقلي أم ماذا؟ لقد كانت على اتصال بي قبيل يوم عودتي إلى هنا، عدت إلى المنزل ليبدو لأمي مدى حزني، والتي حاولت هي بملاطفة غير معتادة منها أن تجعلني أتجاوزه، كانت سهرة ليلية بيني وبينها، تطرقنا في حديثنا عن غربتنا وجدتها، قد شعرت بالضيق هي الأخرى، ومن ثم تحدثت، كانت المرة الأولى التي ترمي فيها أمي همومها على أحد، حدثتني عن حبها لكل شيء هناك في القاهرة، عن الأهل، عن الأقارب، عن المدرسة التجارية التي

كانت طالبة بها، قصت عليَّ ما لا أعرفه عنها، ظلت أمي غامضة طوال عمرها، وفي هذه الليلة، فتحت قلبها لي، ربما كانت تنوي في البداية أن تحدثني كي أستطيع أن أبوح لها بما يضايقني، لكنها وكأنها وجدت الفرصة لتبوح هي بكل شيء وأي شيء، تحدثت عن طفولتي، عن انشغالها عن حبها لوالدي، وفي النهاية همست لي:

"بعد كل تلك الرحلة في الحياة المريرة، لا أريد أن أدفن هنا، هناك في بلدنا الدفء يعيش فوق المقابر، الناس هناك أنفاسهم دافئة، دعواتهم خالصة، لا أريد أن أموت هنا أنا وأنتِ يا عايدة، ولا يمر من جوارنا أحد يلقي السلام يدعو للميت، فيدعو لنا معه، أنا هنا من أجلك أنتِ فقط"

"وأنا ليس لديَّ أحد هناك يا أمي"

قُلتها وتركتها لأفر إلى غرفتي باكية.

في صباح اليوم التالي، وجدنا دقات عديدة على باب شقتنا، وفتحت أمي منزعجة لأجد رجل شرطة وفي رفقته عدد من الرجال، كان يحمل لكل منا استدعاء إلى السفارة المصرية، انتبهت إلى أن هاتفي يرن من أحد التطبيقات، كان المتصل عمر، حاولت أن أرد عليه، لكن الشرطي أمرنا بتركه، ولم أتمكن حتى من إغلاقه معللا أنه غير مسموح به.

(٢٩)
عايدة (١٣)

لم أدرِ لماذا أنا مطلوبة هنا، منذ أن ركبنا سيارة الشرطة، واتجهت بنا صوب السفارة المصرية، لم تكن المعاملة تخلو من لطف، التقاني مساعد السفير على الباب، وطلب من الحراس اصطحابنا إلى مكتب الأمن بالسفارة، كان عبارة عن مكتب فخم به عدد من الكراسي، وسرير كبير ودولاب خشبي، انتظرنا لأكثر من ساعة حتى فتح الحارس الباب، وأنا بين قلق وخوف وأمور كثيرة، ووجدته قد أدخل عدة حقائب عرفتها من أول وهلة إنها حقائب سفرنا، لم يمهلنا الحارس لنفكر، لكنه ابتسم ليقول:

"هذه كل متعلقاتك في المنزل"، وأخرج لي من جيبه الهاتف المحمول الخاص بي، ليخبرني أنه في حوزته حتى ننهي الإجراءات الخاصة بعودتنا إلى مصر. نظرت إليه متجهمة:

"ولماذا؟ نحن لا نريد أن نعود"

أغلق الباب مرة أخرى، وظللنا على حالتنا تلك نفكر في كل شيء، وأي شيء، إلى أن مرت ساعات أخرى تخللها أن الحارس ذاته أدخل إلينا وجبتين، وسمح لنا بالوضوء والصلاة في المكتب، ثم حضر مساعد السفير

في ساعة متأخرة من الليل، وأخبرني الكارثة التي حلت بي في القاهرة، شقتي تعرضت لحريق هائل، وتسبب الحريق في قتل وحرق شخصين لا أعرف عنهم شيئا، والسلطات في القاهرة تطلبني للتحقيق، طلب مني مساعد السفير أن أسرد عليه قصة الشقة، أخبرته بالطبع عن كل شيء، اللعنة وحكايات الجدة راشيل واختفاء الأسرة اليهودية، كاد ألا يصدقني ولا تصديق أمي له في أمر وجود تلك العائلة، وأخبرته باسم الحاخام الذي قام بالطقوس وقتها، جحظت عيناه ليقول لي:

"غير معقول؛ هذا الحاخام سابان توفي منذ زمن ودفن في تركيا!"

أقسمت له أنني لا أقول سوى ما حدث، وليس لي شأن بكذب أو تحايل، أخبرته عن الشركة المستأجرة للشقة، وأريته العقد المبرم بيننا، نظر إليَّ وإلي والدتي، ليقول مرة أخرى في حزم:

"يبدو أنكما ستبيتان هنا الليلة، وفي الغد سنقوم بالتحري عن كل شيء أخبرتِنا إياه"

كان الوقت يمضي ببطء شديد جدا، بندول الساعة انتقل منها إلى قلبي، أشعر بكل دقة في صدري، أشعر بأنني في خطر حقيقي، لم أستطع النوم، ولم أشعر بأنني في نشاطي نفسه، انغلاق تام، كانت أمي تصلي وتدعو الله بالنجاة، كانت تحاول أن تصمد كي تظهر رباطة جأشها أمامي فقط، كنت أعلم وأشعر بانهيارها هي الأخرى، حتى الآن لم يتبين موقفي

القانوني، باعتباري صاحبة الشقة، ولا أعلم ما ستئول إليه الأمور، لا أعلم أأنا متهمة أم قيد التحقيق فقط؟ كل شيء حولي مبهم وغير ظاهر.

في اليوم التالي، وتقريبا قرب الظهيرة، كان لقاؤنا الثاني مع مساعد السفير لشئون الأمن، وأخبرنا أنه قام منذ الأمس بعمل التحريات اللازمة التي تخص قضيتي، ولا وجود لفتاة تدعى راش أو طيار يدعى بنيامين أو سيدة مصابة بالشلل تدعى راشيل، أنكر صاحب العقار وجود هؤلاء الأشخاص، وتمت مراجعة قوائم المستأجرين في البلدية عن المنطقة كلها، كما أن السلطات في مصر أخبرتهم بعدم وجود كيان تحت اسم أعماق للإيجارات والأملاك، وأن المقر الذي قمت بزيارته أنتج وقريبك المقبوض عليه حاليا لدى السلطات هناك، لم يكن سوى مكتب تجاري يستأجر بالأيام، ولم يكن هناك بواب العقار كما ادعيتِ أنتِ، لذا قررت السلطات ترحيلكما إلى السلطات بالقاهرة بعدما استأذنا السلطات هنا باعتباركما تحملان جنسية المملكة المتحدة. كان وقع كلماته على قلبي عنيفا، شعرت أن الأرض تطوى أسفل مني، خصوصا عندما ذكر لي أن عمر قيد الحبس هناك أيضا، لم أشعر بنفسي سوى وأنا أستسلم لرغبتي في الغياب التام، ففقدت الوعي، وبعد برهة تدخل الأطباء في السفارة، أفقت لأجدني لأول مرة في حياتي قد وضع سوار الحبس في يدي اليسرى، وفي يد أمي، وأخبر الطبيب أن نبضي أصبح منتظما، ويمكنكم تنفيذ الأمر بالترحيل، وبعد أكثر من

ساعة كنت على متن طائرة متجهة إلى القاهرة وإلى جواري أمي مربوطين بسوار حديدي، ويرافقني مسئولون من الأمن المصري. كنت أعلم أن الأيام القادمة هناك ستحمل إليَّ السوء، وأن هذه المدينة في كل مرة أزورها تصفعني، وكأنها تلومني على وجودي بها، أرضها تلفظني ولا تريدني إلا حزينة مكلومة، لم أعش بها أي أيام فرح وبهجة، كنت أشعر بالظلام، ومرارة الظلم تجتاح نفسي، وعقلي وحتى قلبي وما أن وصلت الطائرة إلى أرض المطار حتى دعوت الله أن تكون نهايتي، ألا أحيا بعد ذلك، أن تكون تلك هي النهاية اللائقة، فتاة ساذجة في كل شيء، ساذجة في تعليمها، في أصدقائها، حتى في حبها، والآن ساذجة لدرجة أنها ستكون منعوتة بلفظ قاتلة، كان اليأس قد بلغ مني مبلغا شديدا عندما وجدت لفيفا من الضباط بصالة المطار يسحبوننا كمتهمين إلى سيارة الشرطة ذات الظهر المفتوح، وما إن غادرنا المطار ببضع دقائق، حتى أغمضت عيني، ربما ما أحياه الآن أحد كوابيسي التي عشتها وحدي أسكنها ليلا، لكن الأمر كله حقيقي جدا، رفعت عيني لأنظر إلى السيارات والعمارات والمنازل على الطريق، ومن حسن حظي وقتها، أن توقفت سيارة الشرطة نظرا للزحام الشديد، بينما السيارات في الطريق المعاكس الذاهب إلى المطار قد أغلق تماما هو الآخر، كانت السيارات مكتظة بالمسافرين، وكأنهم كلهم قد رغبوا في ترك تلك المدينة في الوقت نفسه، نظرت عبثا مني إلى وجوه المسافرين، ورأيت طفلة وأب وأم داخل سيارتهم، وخلفهم سيارة تاكسي تجلس فيها سيدة وحيدة

ذات شعر أصفر ذهبي، كان شعرها هو الذي في جهتي، وعندما تحرك طريقهم مسافة أمتار، أصبحت بجواري تماما، وعندما التفتتْ شهقتُ وأنا أنظر إلى أمي، لأحثها كي تفعل مثلي وتنظر إليَّ؛ إنها هي أقسم إنها هي صرخت في الجنود حولي، وبدأت أضرب الزجاج خلف الضابط، وبدت كلماتي غير مفهومة له، مما جعله يسارع بالنزول ويسألني لأشير على السيدة بيدي الحرة:

"أرجوك الجدة راشيل ها هي"

كان صوتي عاليًا وكلماتي غير مفهومة له، لكنها انتبهت أنني أشير إليها، ففتحت باب السيارة المستأجرة لتفعل ما كنت أبدا أستطيع تخيله؛ كانت تركض جريا على أقدامها. اتسعت عيناه على آخرها، كل ما مررت به مع تلك الأسرة، مر أمام عيني كشريط سينمائي، حتى آخر لحظة، عندما وجدت المقعد المتحرك وحده في المنزل صرخت في الضابط:

"أرجوك اقبض عليها هناك إنها سبيل نجاتي الوحيد"

أشهر الضابط مسدسه وبدأ يركض خلفها بين السيارات حتى أمسك بها ووضعها معنا في السيارة نفسها، وعندما كانت تصعد إلينا، تمكنت من صفعها بيدي الحرة، لولا أن الجنود حاولوا إبعادها عن طريقي.

في قسم شرطة المعادي، كانت الغرفة نفسها التي بات فيها عمر أكثر من ليلة، غرفة العقيد التهامي، وكنت أنا أجلس على أحد المقاعد، بينما يجلس عمر بموازاتي، وتجلس أمي بالقرب منا، كنت أخشى النظر إليه،

وكان هو الآخر يخشى أن يرفع رأسه صوبي، كنت أرغب في الاعتذار منه، فعمر ليس له شأن بأمر الشقة، لكنني كنت ومازالت كما أنا، أراه خائنا لكل ما كان بيننا، وكان هو يشعر بالألم النفسي تجاهي، ربما ندم، ربما طلب مني الصفح، لكن ليس أبدا في قسم الشرطة، انفتح الباب ليقطع الصمت، وجلس العقيد التهامي ليخبرنا حقيقة كل شيء لم نستطع استيعابه، كل ما استخلصته أنا من الأمر، أن كل شيء كان مرتبا بدقة بالغة، لا صدفة في كل ما كان، سوى أنني رأيت راشيل الجدة في سيارة مستأجرة، كانت متجهة صوب المطار، وليتها كانت الجدة راشيل، لكنها شخص آخر تماما.

(٣٠)
راشيل (٤)

لم يكن هذا اسمي قبل شهور قليلة، اسمي الحقيقي والذي لم أخبره حتى الآن للسلطات المصرية التي قبضت عليَّ هو (مارجريت سمعان حنانيه)، عندما رأتني عايدة وهي في صحبة الشرطة، شعرت بالارتجاف، وبالصدفة القاتلة كل شيء كان مرتبًا منذ البداية بشكل لا يتصوره أي عقل، عشت في القاهرة بالفعل من ١٩٤٠إلى ١٩٥٠، ولكن ليس بمنطقة المعادي، بل في حارة اليهود في وسط القاهرة لأسرة متوسطة الحال، لأب هو الاشهر في تجارة المنيا فاتورة بالحارة كلها، ثم أتى موسم العودة أو الهجرة كما يسميها العرب، هناك دولة تقوم على أنقاض فلسطين ولابد أن اليهود السفر ديم الطائفة التي أنتمي إليها دوما سيكون لها مستقبل باهر هناك، كان والدي يرفض الأمر، لكن بعض التفجيرات لأحياء اليهود وعزوف المصريين عنا، خصوصا بعد اغتصاب عصابتنا الأراضي في الضفة وحول القدس، جعلته يقطع قراره ويكرر السفر بنا إلى إسرائيل، أو أرض ميعادنا الأخير، كانت رحلة سفر شاقة، خصوصا وأن الأنباء كانت ترد لنا طوال الطريق عن قتل السلطات لليهود وتعذيبهم واتهامهم بالجاسوسية، كنا نسري في كل بلدان العرب، وأصبحنا بين يوم وليلة غير مرحب بنا، اختار أبي السفر عبر البحر بطريقة تمويهية عبر أوراق اعتماده بأسماء مسيحية

مسافرين إلى اليونان، كان علينا أن نتقن الدور على جميع المسافرين؛ خوفا من وجود أحد عناصر الأمن مزروع بيننا، كان أبي يقيم الطقوس المسيحية في الظاهر، وعندما يختلي بنا يصلي بنا صلوات الطهور، وهي بقصد تغاضي الرب عن ممارستنا لشعائر لا نؤمن بها، وعندما وصلنا إلى إسرائيل، لم نجد كل ما حلمنا به، صنف اليهود هناك إلى صنفين، سردين مثلنا، وأنشكا، وكانت الغلبة لهم، ويقصد بالسردين هنا ليست الطائفة، لكن الانتماء، نحن أتينا من بلاد عربية ومن شمال أفريقيا، وهم أتوا من أوروبا، فرنسا وانجلترا، وأمريكا، انقسم الشعب وقتها إلى قسمين، الانشقاقيون يتولون كل شيء، والسردين للخطوط الأمامية ومحاربة العرب، التحقت بالجيش الإسرائيلي وقدمت كل ما تستطيع فتاة أن تقدمه لخدمة الوطن الجديد، كنت أعلم أننا أفضل منهم جميعًا، وأننا اليهود الأنقياء، وأننا ننتمي إلى بني إسرائيل، وأننا رهط يوسف وأخيه ومن بعده موسى الكليم، كنا نعلم بمسألة خروج ما شيخ أو كما يسمونه مسيح، لكن نعلم أن خروجه لم يكن يوما سهلا.

تقدمت في رتبتي العسكرية بقدر ولائي للدولة التي أصابت العرب جميعا في مقتل، وعشت ورأيت كيف أننا هزمناهم شر هزيمة في العام ١٩٦٧، ثم اتجهت إلى العمل داخل إسرائيل بعدما تعرفت إلى رفيقة دربي ماري، والتي كانت بصدد تكوين جمعية سرية أسمتها بيثا، وهي تعني الأصل أو العمق، وهي جمعية معنية بالحفاظ على كل ما يثبت أن يهود بني

إسرائيل قد سكنوا مصر، وهم من أنشئوا الأهرامات والحضارة القديمة، انصب اهتمامي على تلك الأمور، وبدأت أهتم بالأثار، وبكل شيء يخص اليهودية بها، حتى صرت باحثة أكاديمية مرموقة، ولم يعلم أحد بأمر انتمائي إلى تلك الجمعية، كنت أسافر باريس ونيويورك ولندن لعقد صفقات بمبالغ خيالية، تخص استرجاع قطع يمكن أن يرجع تاريخها إلى اليهود الأوائل، حتى كنت في زيارة إلى تركيا، حيث زرت الكنس المسمى هناك "نيف شالوم" لألتقي بالحاخام ديفيد عاذر، وهو عضو سري معنا في الجمعية، تعددت اللقاءات بيننا ليخبرني بأنه كان شاهدا على أمر خطير، أخبرني أن هناك لوحة فرعونية تسمى لوحة الخروج أو لوحة العجل أنوبيس، وهذه اللوحة عليها حارس واحد فقط من الجن، وكلما تمكن العتاة في فتح المقابر الفرعونية من تحديد موقعه، نقل اللوحة إلى مكان آخر، كان وقتها ديفيد شابا، وقد علم من سيده ومعلمه الحاخام سابان أنه تمكن بواسطة وثيقة تنسب إلى موسى بن ميمون من حبس الحارس بعيدا عن اللوحة، ولكنه أبدا لم يعترف له بمكانها، وعندما احتد عليه قتل كل الأسرة اليهودية التي كانت الطقوس تمارس تحت سقف بيتهم، أي إنه لم يتبق من أسرة سبانخ أحدا، وأن راشيل التي ادعيت أنني هي، كانت معهم تمارس الطقوس، ولقت حتفها هي الأخرى، حملت كل تلك الأنباء إلى أعضاء جمعيتي في إسرائيل، وبدأنا أمر شراء العقار من ملاك الشقق فيه، وبالفعل قمنا بكل شيء، ولم يستجب لأمر شراء الشقة سوى رجل يدعى غزاوي،

والذي نقل ملكيتها بعد فترة لشاب متزوج حديثا يدعى ماجد، كنا نتابع أخباره أولًا بأول، وقد علمنا أن الحارس حاول أن يتواصل معه ليطلب منه أن يحرره من أسره، لكن الأخير ظن أن بإمكان الحارس منحه ما يريد، وبدأ صراعا مريرا على إثرها قتل الحارسُ الرجلَ، وانتقلت الملكية إلى فتاة صغيرة تدعى عايدة، تناسيت الأمر وقتها، ولمدة طويلة انشغلت بأمور أخرى، ومعارك أكبر تخص دولتنا، إلى أن ثارت ثائرة بعض المؤرخين العرب، عندما نشرنا دراسة تؤكد أننا من قام ببناء الأهرامات، وأن حقنا في أرض مصر هو كل كنوزها التي صنعها أجدادنا نحن، لا أجدادهم هم، هنا تذكرت أمر اللوحة التي ستجعل من تأكيد تلك الأمور هيِّنٌ بواسطة العبث في بعض التواريخ المؤرخة عليها، وتحريك الآلة الإعلامية الخاصة بنا مع ضغط من اللوبي الصهيوني في دوائر صنع القرار في العالم كله، لكن كان عليَّ أن أجد عايدة وأقنعها بقدرتنا على تخليصها من الحارس بالشقة، لذا بحثنا عنها حتى علمنا كل شيء، اخترنا منزلا تابعا لجمعية خيرية، وزوَّرنا بعض الأوراق الرسمية لنحدد يوما للعملية، أول يوم عيد الميلاد.

لم يكن تأخر راش على عايدة محض صدفة، ولا دعوتها للمنزل ولا تظاهري بالشلل النصفي وحديثي لها بالمصرية الخالصة، استعنت بصداقة راش لها، وهي التي كان اسمها الحقيقي ديانا، واستعنت بعضو قديم في جمعيتنا يدعى رافيل، ليمثل دور بينجامين ابني، وأحطنا الفتاة من كل صوب، كانت ساذجة لا تعي أي شيء مما يحاك لها، سمحت لراش أن تكون

قريبة منها قرب الأصدقاء، ومن خلالها عرفنا كل شيء، عرفنا أمر تعلقها بشاب يدعى عمر، وساعدتها راش في الحصول عليه، بل وأعطتها صفحة فيسبوك معدة سلفا، وقد وضعنا اسما لشركة وهمية كي يظهر لها في أول نتائج البحث، باعتبارها سيلينا، ويتم التعاقد معهم، كان على رافيل أن يساعد والدتها في الموافقة على صرف الإعانة، كي نسهل أمر سفرها، وبالفعل تم لنا ذلك، ما لا تعرفه عايدة أننا كنا في القاهرة، أقصد ثلاثتنا، في اليوم التالي لوصولنا، وقد لحق بنا الحاخام ديفيد عندما تأكد أن عقد الاتفاق معها، كل ما كان يجعلنا نشعر بالضيق، هو ازدياد تعلق الفتاة بذلك الشاب ورغبتها في أخذ رأيه في كل شيء، حتى إننا وعلى الرغم من حجزها موعد سفرها، خشينا أن يطلب منها هو البقاء، فكان علينا التفتيش خلفه في كل أموره القديمة، وعثرنا على بغيتنا في فتاة ليل قضت معه ليلة واحدة، كل ما فعلناه أننا وضعناها في طريقها بشكل يظهر أنه صدفة بحتة، ألم أقل أن كل شيء كان مدبرا من البداية؟ عندما رحلت عايدة وأمها واستلمنا مفتاح الشقة، ذهبنا مسرعين إلى هناك، وبدأ الحاخام ديفيد يرسم الطلاسم على كل حائط في الشقة، ليحيط بالحارس من كل جانب، ولا نعلم ما فعلته به تلك الطلاسم، لقد بدأ الحاخام تعذيبه كي يخبرنا بمكان اللوحة، لكنه رفض أن يفعل حتى لو كان في مقدرتنا القضاء عليه، فجأة اقتحم الشقة جنيٌّ آخر، لم يكن في حسابنا أن يحضر، بدأ بمسح الطلاسم من على بعض الحائط، تمكن الحارس من أن يتحرر بشكل بسيط، وبدأ انتقامه بنيران كثيفة طالت ديفيد

وديانا، وتمكنت أنا والحاخام من الهرب، والذي اختفى نهائيا، لم أعبأ بإنقاذه أو معرفة مكانه، كل ما في الأمر أنني حاولت الفرار، وفقط لليلتين أتابع الأخبار المنشورة عن الحريق، ووجدتها فرصة سانحة للهرب، مع انشغال الشرطة بالجثتين والتحقيق مع صاحبة الشقة، لكن الصدفة القاتلة أوقعتني في طريق الفتاة اللعينة عايدة، ورأتني وثبتت عينيها على عيني، ارتبكت وفتحت باب التاكسي لأشق طريقي، لفت نظر الضابط، أسرعي بالهرب، لو كنت أهملت الأمر، ربما لم يكن يهتم بادعاء عايدة، وها أنا بداخل الحجز أنتظر، لست بمنتظرة الشرطة وتحقيقاتها، فلن أبوح بأي شيء بخصوص كل هذا، على الرغم من أنهم أثبتوا دخولي العقار برفقة ديانا وديفيد ورافيل عن طريق كاميرا لمطعم في مواجهتها، لكنني أنتظر أن تنقذني دولتي وجمعيتي السرية، انتبهت إلى أنني بينما أفكر في كل ذلك، فتح الحجز لتدخل إليه سيدة في عقدها الرابع، ملامحها إجرامية بامتياز، ربما عليَّ الصمت والسكون والصلاة للرب كي ينجيني من كل هذا.

(٣١)
عمر (١١)

مضت الأحداث في الأيام السابقة سريعة وغير اعتيادية، أنا الذي كان قد قتل أمله نهائيا في عودة عايدة مرة أخرى إلى القاهرة، أجدها هنا بعد سفرها بأيام قليلة، تجلس أمامي على مقعد التحقيق، بينما يسألها العقيد التهامي عن كل شيء بخصوص الشقة، كنت لا أجرؤ على رفع عيني إلى عينها، كنت أحاول النظر لأسفل، حتى وهو يوجه لي الحديث، كنت الشاهد الذي لا يعلم أي شيء بالطبع، قصت عليَّ عايدة من قبل أمر الأسرة التي ساعدتها في الخلاص من الشر الكامن بالشقة، لكن ليس هكذا بالتفاصيل المملة، كما أوردتها للمحقق، كنت أجد في كل كلمة تنطقها تفسيرا أو تبريرا لكابوس رؤيتها محاطة بالأفاعي، الآن فقط علمت مَن الأفاعي، وما كانت تعانيه عايدة وما دُبِّر لها، لكنني أعلم الآن أنها قلقة مرعوبة من فكرة أن تتحمل أي جزاء قانوني، في الحقيقة إنني وقتها نظرت إلى يدها التي كانت تفركها بين حين وحين، ووددت لو أمسكت بها؛ بقصد طمأنتها، أعلم أن ذلك مستحيل، لم أعد أضمن رد فعلها إن أنا فعلت ذلك، في الماضي، ومنذ أيام فقط، كانت يدي هي أمانها الوحيد، والآن أصبح وضعي مبهما بداخلها، عندما طلبت مني السلطات الاتصال بها عبر ماسنجر؛ ارتبكت لعلمي المسبق أنها أبدا لن ترد، على الرغم من أن اتصالي

كان بغرض طمأنتها أن القوات التي ستذهب لأخذها إلى السفارة هي لحمايتها فقط، العقيد التهامي يبدو أنه على علم مسبق بأمر تلك المنظمة، لأنه طلب مني رسم الشعار الذي رأيته على عربة الشركة، وبدأ رحلة تحرياته الخاصة، ويبدو أن لديه شيء لا أحد يعلمه إلى الآن، بعد محاولات عديدة قام بالرد على أحد الجنود، وبمصرية خالصة أخبرني أن عايدة معهم داخل السفارة المصرية، وأخبرني أن هاتفها معه لظروف الأمن الخاص بها، لكن يمكنه أن يخبرها وأن يجعلني أتحدث معها ولو دقيقة، خشيت أن أجيبه بالقبول على الرغم من علمي أن هذا الأمر سيفرق معها، خصوصا في رحلة سفرها، لم تدرِ هي مؤكدا بأمر مثل هذا، وبينما كان المحقق ينهي أسئلته لها، دق الباب أحد الجنود ليقترب من مكتبه ويخفض صوته ليخبره أمرا ما؛ تغير وجهه العقيد التهامي وهتف قائلا:

"قتلوها داخل الحجز"

كانت المقصودة هي السيدة الأجنبية التي رأتها عايدة في طريقها من المطار، لقد سعت المنظمة خلفها، وخشيت أن تبوح بأي شيء، فقتلتها هكذا ببساطة، أصبحنا في ورطة، أقصد عايدة، هذا ما شعرت به حينها، أني أشاركها الأمر تماما، كل ما يخص عايدة يخصني، حتى لو لم يكن هناك أي شيء رسمي بذلك، طلب منا العقيد الانتظار في مكتبه، وتركنا وحيدين داخل غرفته، لا أجرؤ على رفع رأسي ولا تستطيع هي أن تبدأ بأي حديث،

كنت محتارا، هي الآن في أقصى ظروفها النفسية ومتعبة، ولا تعلم ما يخبئه الغد لها، وأنا متردد أن أفتح فمي، تشجعت ثم قلت لها:

"لا داعي للخوف، أنا.. أقصد نحن أقصد أنني أو نحن سويا و.."

رفعت عينيها في مواجهتي، وكانت الدموع فيها تغني عن أيَّة كلمة، كنت أستجدي منها، مؤذٍ أنا بطبعي، لم أقترب من أي شخص في حياتي إلا وتسببت في إيذائه، وهاه أعز إنسانة لديَّ قد آذيتها بدون قصد، كنت أكيل الاتهامات لنفسي، وقررت أنه بمجرد إنهاء كل هذا، سأكون أبعد إنسان عنها، سأتركها تمضي في حياتها بعدما أصبحت بالنسبة لها كابوسا يحمل لها معنى الخيانة في صورة شاب بائس. انفتح الباب فجأة، ودخل العقيد في صحبة عدد من الضباط، ووضع جهاز عرض أمامنا ويطلب من أحدهم تشغيله، كان الشريط الموضوع فيه فيديو مصور داخل مكان، لا شيء مميز فيه لرجل يرتدي زي حاخام يعلن فيه عن نفسه أنه رافيل، شهقت عايدة عندما ظهر على الشاشة، ليقول إنه ادعى عليها أنه الحاخام سابان المتوفي منذ سنوات عديدة، وبدأ يتحدث عن كل شيء يخص منظمة اليهود السردين، وأحلامهم الوهمية بخصوص أرض مصر، ثم تحدث عن اللوحة وحارسها وكل شيء، وفي النهاية أغلق الضابط الشريط، ونظر إلينا قائلا:

"الآن أستطيع أن أنهي أمر انصرافكم من هنا."

كان يقصدني أنا وعايدة وأمها التي لم أنتبه لوجودها أبدا..

كانت الإجراءات بسيطة، ولم تنل عايدة سوى محضر جنحة بسيطة، بتأجير دون إذن السلطات، وعلمت من الضباط هناك أن الغرامة مبلغ زهيد، وأنه لا ضرر عليها، لكن العقيد التهامي بعدما أنهينا كل شيء أخبرها بضرورة إخباره إذا هي نوت السفر مرة أخرى، على أن تنسق مع السفارة المصرية هناك أمر نقل سكنها من المنطقة، والمتابعة دوما معهم إن ساورها الشك يوما أنها مراقبة، أو تشككت في أي شخص يحاول التقرب منها. انصرفنا من مبنى القسم، وكنت معها عندما استقللنا تاكسي إلى الفندق نفسه الذي سبق وحجزنا فيه، وأنهيت إجراءات تسكينهم فيه، وانصرفت ولم أتحدث معها ولا نصف كلمة، كانت اللحظة التي كانت عيونها مليئة بالدمع كافية جدا أن تجهض على ما تبقى لدي من أمل في أن تتجاوز أمر ما حدث بيننا. كنت متعبًا وأريد النوم بشدة؛ لذا عندما وصلت إلى باب غرفتي، أغلقته وارتميت على سريري بكامل ملابسي، وما أن غفوت حتى شعرت بيد توضع على يدي، يد دافئة، أعرف ملمسها تمام المعرفة، انتبهت مسرعا لأتلفت في الغرفة، ثم أغفو مرة أخرى، وتكرر الأمر ثلاث مرات وفي الأخيرة تصنعت النوم، وفتحت عيني فجأة كان محمود يرتدي جلبابا أبيض، ويضع يده الأخرى معلقة على صدره، وهناك آثار دماء على رقبته من جرح لم يلتئم بعد:

"محمود!"

"لست محمود هل نسيتني صديقي؟!"

"محمود، أين ذهبت؟"

"أنا عامر، هل تتذكر يوم حملتك من سور المدرسة، ويوم منزل الشيخ مالك و.."

"عامر!"

"نعم يا عمر، أنا هو، لم أستطع يوما الابتعاد عنك، حتى عندما طلبت مني أنت ذلك، كنت دوما أراك، وفي كل أمر تصنعه كنت إلى جوارك دوما، وعندما علمت أنك على استعداد أن تعود كما كنت من قبل، تصنعت أنني محمود، كي آخذ يدك وأكون إلى جوارك يا صديقي، لتعلم أنني أبدا لم أتخل عنك، ولم أتخل عن حلمي بالعودة إلى الشقة، لذا عندما أخبرتني أن قريبتك قد استطاعت إنهاء الأمر لم أتردد في الذهاب إلى موطني الشقة، لكنني وجدتها مسكونة بأشخاص يكتبون بمداد من دم على الحائط، خشيت أن يكونوا بصدد محاولة لتحرير الحارس، وازدياد قوته وتمكينه أكثر من الشقة، فقمت بمسح بعض الرموز، وهذا كاد أن يقتلني وأستطاع الحارس الإمساك برقبتي وجرحي جرحا مميتا، لم أستطع الهروب منه سوى بعد مقاومة شديدة، وتجمع حولي عمار المساكن من البيوت المجاورة للعمارة، وحملوني إلى مسجد قريب ليقفوا على مداواة جرحي، لكن لم يستطيعوا فعل شيء، ظننت أنها النهاية، لولا ظهور ذلك الرجل الغريب، رجل ذو لحية بيضاء كبياض الثلج، يرتدي مسبحة من خشب حول عنقه، ويعمم رأسه بعمامة خضراء، كان وجه كالبدر في تمامه، اقترب مني وبدأ يمسح بيده

مكان الجرح، ويتمتم باسم الله الشافي من كل داء، شعرت بقوة غريبة وطاقة من نور تسري في كل جسدي، وشعرت بالتحام جرحي، همس الشيخ في أذني:

"إذا أردت فهم مالا تفهمه، وحل ما لا تظنه معقدا، اذهب أنت وأصحاب الشقة إلى الشيخ حمزة الأيوبي"

"ومن حمزة الأيوبي؟"

"هذا ما أشغلني عنك يا صديقي بعض الوقت"

لقد بحثت عنه في كل البلاد، حتى وجدته، الأهالي والجن يقولون إنه شاب في مقتبل العمر قد ورث العلم عن أبيه الذي ذاع صيته لسنوات عديدة بينهم، ويدعى الشيخ ياسين الأيوبي، ولما كبر في العمر قام ابنه مقامه، وقد أحسن الفعل دوما مع كل من يحتاجه. كان عليَّ أن أذهب مع عامر صديقي إلى بيت الشيخ حمزة، استقللت سيارة، واتخذت طريقها صوب قرية بالقرب من القليوبية، ووصلنا إلى هناك قبيل العشاء، كان الأذان يصدح من مسجد كبير يسمى مسجد الأيوبي، يبدو أنه مسجد العائلة، طلب مني عامر الوضوء والصلاة قبل أن نلتقي الشيخ سويا، كان على حالته الإنسانية في شكل محمود، كنت أنظر له بابتسامة وراحة، كنت أشعر أن جزءًا من أمني الشخصي في سلامته، أحببته كرفيق وصديق، وأحببت فيه انتمائه إلى الشقة أكثر مني، تهت أنا وتاهت عايدة، وبقي هو يسكنه حلمه في العودة إليها، أقام الشيخ في مقدمة الصفوف الصلاة، وبدأ

يتلو وللعجب كانت سورة الجن، لم أستطع أن أمنع نفسي في تذكر أول مرة رأيت عامر فيها، وأول آيات تعلمتها من المصحف في تلك الليلة، كان صوت الشيخ عذب، وكان يبدو أنه شاب لم يتجاوز الأربعين، أتممت الصلاة خلفه وودت ألا تنتهي أبدا، وعندما انتهت قمت لأسأله عن منزل الشيخ حمزة الأيوبي، ابتسم لي تظهر أسنانه البيضاء المتساوية ويقول:

"هنا بيته ومسجده، وها هو خلفك في الصف الأول"

التفت لأجد شابًا لم يتجاوز السادسة عشر يجلس ويسبح على يديه، اقتربت منه:

"أريد الشيخ حمزة الأيوبي"

"أنا هو يا عمر، اجلس"

فتحت فمي على آخره، كيف عرفني وعرف اسمي؟ ابتسم ليظهر مدى الشبه بينه وبين شيخ المسجد الذي تولى عنا ليخرج دون أن يلتفت لنا. نظر الشيخ حمزة خلفه:

"أعلمني عامر بأمرك"

"هل نستطيع أن نفعل شيئا"

"الله هو من يفعل، نحن مجرد أدوات لمن يستعمله ربه في الخير"

"إذن اخبرني ما تطلبه"

"أريدك أنت، وأريد صاحب الشقة، وأريد شخصا آخر أيضا يكون معنا، وكل واحد منكم يحضر ومعه مصحفه، موعدنا غدا بعد صلاة الظهر أمام باب الشقة"

مد يده ليسلم عليَّ، وعندما ذهبنا بدأت أتشمم يدي، رائحة مسك لم تنقطع منذ لمسني،

كان عليَّ الذهاب إلى عايدة في بهو الفندق، وطلبت مقابلتها، تركتني أنتظر لأكثر من ساعة، كنت أعلم أنها تحاول أن تحسم أمرها تجاهي، لكن في النهاية حضرت وجلست معي في بهو الفندق لتقول:

"سأجلس معك هنا، عسى ألا يتعرف إليك أحد آخر"

تذكرني بما حدث في الكافية القريب. قُلت لها:

"هل تتذكرين محمود؟"

وقمت بقص كل أمر عامر من بدايته حتى نهايته، كانت جامدة لا تتفاعل مع أي مضمون، حتى ظننت أنها تراني الآن مجنونا تماما، وعندما انتهيت تحدثت هي:

"اسمع يا عمر، ما مررت به خلال تلك الفترة، جعلني أصدق كل شيء، وأي شيء، لذا أنا أريد أن نفعل هذا الأمر، حتى لو كان الشيخ دجالا ومحمود وهما من بين أوهام كثيرة كذبت عليَّ فيها، لذا سأنتظرك في الغد، لكن من الثالث الذي سيرافقنا"

"لم أحسم أمري بعد"

كنت أقولها وهي لا تعلم أنني قد رتبت أمره، كان يجب أن يكون معنا، كان يجب أن يكون شاهدا على كل هذا.

في اليوم التالي وعقب صلاة الظهر، كنت أقف أنا والشيخ وعايدة بجوار باب الشقة، هذه المرة لم اشعر بأي شيء سوى ارتياح، كنت الوحيد الذي يرى عامر يقف على سقف السلم، وأمام الشقة المغلقة كنت أشعر به وما يدور في خلده، عامر الدائم على المحاولة منذ ولد بها. ابتسم الشيخ:

"أين الثالث؟"

ظهر في مدخل السلم العقيد حاتم التهامي ليقول:

"أنا هنا يا مولانا"

شهقت عايدة ليقول لها وهو ممسكا بمصحفه:

"كان عليك أن تخبريني أنت لا عمر، ذلك كان اتفاقنا!"

وضع الشيخ حمزة المفتاح في الباب، وبدأ ينطق بعض الكلمات غير المفهومة، وسرنا خلفه ممسكين بجلبابه من كل ناحية، كانت آثار الحريق صعبة على الحائط وبقايا الأثاث، أخرج الشيخ حمزة من جيبه لفافة بها قطعة من العظم، مكتوب عليها طلاسم سوداء، ووضعها في منتصف الشقة، أغلق الباب خلفنا فجأة، ولم يتمكن عامر من الدخول، ونظرنا جميعا صوب الباب، لنجد شيئا يحدث صوتا داخل الحمام، أضواء الشقة كلها تنخفض وتعود شديدة، بينما على الحائط ثمة ظلال تتحرك من كل اتجاه في سرعة

رهيبة، كنا جميعنا نلمح كل تلك الأشياء، ورأينا زجاج الشرفة يتكسر، التفت الشيخ حمزة لنا ليقول:

"سنفتح جميعنا المصحف، سأقرأ أنا أواخر البقرة، ويقرأ عمر سورة الجن، وستقرأ عايدة أوائل الصافات، ويقرأ العقيد التهامي البقرة من الآية ١٠٢، واتبعوا ما تتلوا الشياطين، سأعد إلى ثلاثة ونبدأ سويا، ولا أحد يتوقف سوى بإشارة مني، يجب أن تكون أصواتنا متداخلة، إياكم والضعف، ربما يلبس الكيان أحدنا.."

عدَّ الشيخ إلى ثلاثة، وبدأنا نقرأ بصوت عالٍ، بدأت الأبواب تتخبط بأصوات عالية والزجاج يتكسر والخيالات تزيد، حتى إن قطع العظم اختفت، والشيخ يشير بعينيه للاستمرار، كنت مشغولا على عايدة وشعورها الآن، وبدأت أشعر بالدوار الشديد، وفي لحظة واحدة توقفت، ليس لأنني شعرت بأنني على غير ما يرام، لكن عايدة وجهها يتحول، رمت المصحف على الأرض، وخلعت حجابها، بسرعة توقفنا جميعا حاول الشيخ حمزة الاقتراب منها، دفعته بعيدا إلى أبعد حائط، وصرخت صرخة غريبة بصوت غليظ، انفتح الباب فجأة لأجد الشيخ الذي كان يصلي بنا، وعلمت أنه والد الشيخ حمزة، يدخل منه وإلى جواره عامر، ويقترب بشدة من عايدة ليمسكها بشدة من عنقها:

"تدفعين ولدي أيتها الجنية العمياء"

شهقنا جميعا، غير معقول! الكيان الموجود في الشقة ليس بجنيٍّ، لكنه جنية وعمياء، دفعها الشيخ إلى أقرب حائط ليهمس لها في أذنها:

"اخرج منها وسأحررك مثلما فعلت في الماضي"

بدأ جسد عايدة يرتخي وتعود إليها نفسها، تشعر بالإحراج من خلعها للحجاب، بدأ الشيخ ياسين الأيوبي كتابة أشياء على الأرض، وبدأ يتمتم بصوت عالٍ كلمات غير مفهومة، ليمسك ذراع عايدة ويجرحه بشيء حاد، لتنزل دماؤها في منتصف تلك الطلاسم، بدأت الإضاءة تعود، ووقف عامر إلى جواري:

"هل رأيت، لقد تحررت وستعود لتحرس لوحتها"

كان عليَّ أن أفهم كل شيء من الشيخ ياسين الذي اطمأن على ولده حمزة، وبعدها بدأ يقص علينا أمرًا غاية في الغرابة عن حكايات قصص قديمة، تقول إن حارسة تلك اللوحة، كانت ملكة من الجن، استعان بها المصريون القدماء لحراسة اللوحة، وأنه التقاها قديما في رحلته إلى العالم السفلي، وبدأ يفسر لنا كل شيء قد حدث، لم تكن تعلم تلك الجنية أن من استطاعوا سجنها سجنوها في شقة، كانت تظن أنها في بئر أو سجن، لذا كانت تهاجم كل شيء يقترب منها، كانت تهاجمهم ظنًّا منها أنهم أعداءها؛ فقتلت بدون قصد والد عامر، واصابت والد عمر حين حاولت الإفلات من الشيخ مالك لأنها لا ترى أي شيء حولها، اعتمدت على المهاجمة دون أي أسباب، قتلت كثيرين وكادت أن تقتلهم جميعا، لولا أني فكرت في أمر

الاطمئنان عليكم، وعرفتها وعرفتني من صوتي، لم تكن لتترك أي شخص هنا على قيد الحياة. ابتلع العقيد التهامي ريقه وهو يقول:

"هذه أغرب الأشياء التي قابلتها في حياتي"

تساءلت عايدة:

"وهل عادت إلى لوحتها؟"

"نعم"

"والشقة؟"

"أصبح المكان كله أمنًا"

هنا اختفى عامر من جواري، وأنا أنظر إلى السقف، رأيت وجه محمود سعيدا لدرجة لم

أره بها طوال فترة مكوثنا سويا.

كان على عايدة أن تحسم أمرها بالبقاء أو السفر من جديد، قررت هي السفر، لأنها مرتبطة بانتهاء دراستها وعملها هناك، وأخبرتني أنها ستحاول زيارتي، أقصد زيارة القاهرة كلما سنحت لها فرصة، وتركت معي مفاتيح شقتها، كي أطمئن كل فترة وأخبرها أن الشقة بخير، كنت أذهب إلى الشقة وألتقي بعامر، كنت أقف في الشرفة وأتحدث إليه، بينما يظن المارة أني أتحدث لنفسي، وعادت عايدة تحدثني وتخبرني عن كل شيء يحدث لها عن طريق الإنترنت، مازالت تحتفظ بصفحة سيلينا، وتحدثني بالاسم نفسه، ليظل شاهدا على أننا، أقصد أنا وهي، قد مررنا بحياة لم تكن أبدا سهلة، بالطبع

حاولت مئات المرات أن أتشجع وأخبرها أنني أحبها، لكن كل مرة كان يخذلني القدر، وتخذلني يدي التي ستكتب، حتى جاءت ذات يوم تسألني بكل جدية:

"عمر، هل تتذكر يوم الكافية التعيس؟"

"امم بالطبع أتذكره"

"ماذا كنت ستقول يومها؟ أقصد قبل أن يحدث ما حدث؟"

"كنت سأقول.. أقصد كنت أفكر.. أقصد أنني.. وقتها كنت أريد"

"ها.."

"سأكتب لكِ عندما تغلقين"

في ساعة متأخرة من الليل خلدت للنوم، وتركت هاتفي، لكن الهاتف كان به أمر غريب يحدث:

"مرحبا عايدة، أنا عامر"

"عامر!"

"نعم، اسمعي، هذا الفتى عمر يحبك، هو لا يستطيع أن يكتبها"

"أنا أعلم ذلك، لكنني أريده أن يبوح بها"

فتحت هاتفي في الصباح لأجد رسالة مرسلة مني إلى عايدة من كلمة واحدة:

"أحبك."

وقد ردت هي بصورة على شكل قلب. ربما أتزوجها بعد أن تنهي دراستها، ربما يجمعنا سقف شقتها الذي يسكنه عامر الآن، وربما تخبئ لنا الأقدار غير ذلك، كل ما أستطيع أن أُلَخِّص به الأمر:

"لقد وجدت نفسي حين وجدتها، وقد تاهت عني نفسي يوم فقدتها.."

تمت بحمد الله

عمر ناجي
في ٢٧-١١-٢٠١٩

لكل قصة نهاية.. ولكل حدث أجل... لعلها تركت أثرا.. لعلها ضربت مثلا.. لعلها كانت دليلا على أني نجحت في أن أكتب عنكِ وعني فيها، فإن كان من فضلٍ فمن الله، وإن كان من تقصير فمني. أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه أبدا، لفترة لا أعلم أستطول أم ستقتصر؟ حتى أستطيع أن أكتب شيئا يستحق وقتكم، فإن لم أستطع فسامحوني، والتمسوا لي ألف عذر وعذر. وحتى لا يضيع مجهودي فيها، ادعوا لي أن أسعدكم يوما، وخالص المحبة والود دوما.

عمر ناجي.

"إلى لقاء قريب بإذن الله"

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

نشر كل إنتاج إبداعي بجودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، حتى لا ينزف الوعي من ثقوب الذاكرة، بأعمال تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة، والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.